عالم بلا مُخلِّص؟

ثلاث خطوات نحو عصر ما بعد العلمانية

سالم ابراهيم سالم

ليليث للنشر والتوزيع

سالم إبراهيم سالم
عالم بلا مخلّص ؟
رقم الايداع ١٥٣١٨ / ٢٠١٢ / ط١
الترقيم الدولى ٥ - ١١ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
مراجع لغوى / أحمد عبد العظيم
تصميم الغلاف فاطمة عشرى
حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر
ليليت للنشر والتوزيع
المراسلات :١٧ ش محمد أمين شهيب
مصطفى كامل - إسكندرية
من ش أبوقير- أمام كلية رياض أطفال
ت : ٠٣٥٢٣٢٠٤٤
موبايل : ٠١٢٠٦٣٠١٢١٢
lileteepublishing@gmail.com
هيئة تحرير الدار
د/ محمد داوود
محمد الشماع
ميسرة صلاح الدين

نحترم ابداع الكاتب وعقل القارئ

لأمي وأبي

" المجتمع الغربي الآن كما الفترة بين الحربين العالميتين يحوم ثانية في عالم الحيرة ومرة أخرى (كل شيء تقريبي) ومرة أخرى ليس هناك توجه حقيقي ، فقط تصور غامض ، يجب على المرء أن يشوش ذهنه بطريقة ما وينجو "
مع أن العالم لايزال (منقذًا) طوال 2000 سنة إلا أنه اليوم لا يبدو المكان الأكثر أمنًا وإنسانية وعقلاً مما كان عليه.

كتاب " الإرث المسيحى "
لمجموعة مؤلفين

« فلتعلم أن طُهر النفس أرجح عند الله من إدراك الصواب »

م. الغزالي

ربما علينا أن نقاتل

الكتابة التي تعني لي تمارين جميلة لاختبار جودة العالم تمنحني فهم عميق لفكرة القتال، إنها نوع من أنواع التسرب البطيء للذات . . تعلمنا أين نقف بالفعل وأين علينا أن نقف بالضرورة.

بمرور العمر تتفتت آمالنا وأحلامنا، نشعر أن الزمن هو تصفية ذاتية . . طريق غير ديمقراطي نحو مقبرة . . هنا الكتابة لا تترجم مخاوفي وصدمة الموت التي أعانيها وإنما تعيد إحياء هذه الذات الجريحة ، تجعل الباب بيني وبين أحلامي مواربًا، تعلمني أن تاريخ العالم هو تاريخ أفكاره بالفعل.

هذا الكتاب ضربة جناح طائر يهفو بكل ذرة فيه أن يحلق، استشراف خاص لجلسات جامحة مع مخطوطة الله الفريدة التي أودعنيها . .(عقلي) .

إنه لحظة غامرة بالصدق أو محاولة الصدق.

أود أن أشكر عائلتي محمد الحبيب، أحمد، أمال، ألفت . . لهم كل الحب والخير.

إيمان سعيد التي زوّدتني بكل ما أحتاج، كتاب فلسفة العلو لشتروفة، تاريخ ضائع لمايكل مورجان، الصليبيون في الشرق لميخائيل زابوروف، مقومات التصور الإسلامي لسيد قطب، الاسلام والغرب لقاسم عبده قاسم، وشكرًا لزُهير الكاشف الذي دفعني لكتابة هذا الكتاب .

محبتي

فايد – 8 – 2012.

حلمَ القدماء بتغيير العالم فلجأوا للفلسفة في محاولتهم النبيلة في (التغيير) .

هذا هو الدور الذي يقوم به العلم الآن . . التغيير، تغيير العالم.

لكن هل هذا يدفع بالعلم لأن يخبرنا ما الله ؟ !

نعرف أن العلم يصف لنا احتمالات، لكنه لا يقدم لنا تصورًا كاملاً للحقيقة، والدين ليس نتاج معمل والله ليس معادلة.

وحين قدم لنا الأنبياء الله، لم يقدموه بصيغة احتمالات أو كعلم وإنما بصيغة اليقين، واليقين هو أبعد ما يكون عن فلسفة العلم، بل إنه نقيض العلم . . ما هو تاريخ العلم ؟

إنه أخطاء العلم.

وظيفة العلم لا البحث عن الله وإنما الحديث عن العالم، تفسيره، أيضًا النزوع الدائم لتغييره، فالعلم هو اللغة التي تنطق بها الموجودات . . ما وراء المادة القوانين الخفية . . روح الوجود .

أما الله فهو غاية الوجود وموجد الوجود .

فلو كان العلم يختص بالعِلَّة المباشرة لكل ما في الوجود ، فالله هو العِلَّة الغائية والأنبياء لم يكونوا رجال علم ولم يحرصوا على أن يكونوا ولم يكن عليهم أن يكونوا .

الخطوة الأولى

"دفاعًا عن الدين"

العالم

منذ البداية والانسان يحاول أن يرتب قطع أساس العالم ، مغرم باستيعاب هندسة المعمار الكوني. فقط كي يفهم مصيره ، مصير أحلامه وتعبه ومشوار حياته.

الأفكار قديمة جدًا ولذيذة جدًا . .

تبدو بسيطة رغم ما استغرقته من سنين لتظهر ويقتنع بها الناس وكان الدين (كيفية) لتفسير العالم وكان العلم وكانت الفلسفة.

لجأ الانسان للعقل ، للعقل وحده ، فتجلّت الفلسفة ويتم دومًا الإشارة لطاليس كأول فيلسوف لأنه سأل: ما أصل العالم.

وأجاب ببساطة: الماء.

إجابة خاطئة إلا أن الجمال لا يكمن في الإجابة ، الجمال جمال السؤال.

وانداح الفلاسفة وانبثقت الأفكار وبدأ العقل يتطور في مقولاته، فتحدث انكسمندريس عن اللامحدود، وفيثاغورث عن روح الأعداد، وتحدث أكسينوفان عن (الله) القديم الذي لا يمسه التغير . . الله أصل العالم.

أبعد قليلاً عن اليونان، بالشرق لجأ الانسان للدين، للتجاوز وحده، ومازال أطفال العالم يسمعون حكايات الأنبياء الكبار وتشمل أرواحهم بما يسمعونه

نضال النبي إبراهيم ضد الوثنية، ثورية النبي موسى ضد استعباد المصريين لشعبه، الطريق عند المسيح، فن الحياة عند النبي محمد .

وكان الدين يضع الانسان في حوار مباشر بين كل الانبياء وبين روح الله وصرنا نعرف لا الخطة الفيزيائية التي وُجد بها العالم وإنما الحكمة من وراء هذا العالم ومجيئنا فيه ومصيرنا .

ولجأ أخيرًا للعلم . . للطبيعة وحدها، فانتبه لضوء ابن الهيثم وجبر الخوارزمي، وجاذبية نيوتن، ومنهجية جاليليو، وأجرام كوبرنيك وعناصر مندليف، و وراثة مندل، وكَمْ ماكس بلانك، ونسبية أينشتين .

وبعد كل هذا التاريخ الطويل والخصب، ورغم كل مغامراتنا ونجاحاتنا مازلنا أطفالاً أمام هذا التصميم المعماري للكون، بل وزاد قلقنا وحيرتنا

من نحن ؟

وما تاريخ أفكارنا ؟

وما الحكمة من وراء كل أخطائنا التي كدَّرت لنا رحلتنا الكبرى التي تهادت للحيرة نفسها والجهل نفسه .

ما البداية ؟

وإلى أين نتجه ؟ .

لكن مازال الانسان يحمل دفاتره كلها، كلماته كلها، صخرته المحبوبة ويصعد أمام إغراء الكون شديد البهاء والانسجام.

لم يهجر شذرات طاليس والأيونيين والذريين والفيثاغوريين، مازال ينصت برقّة لمحاورات أفلاطون ومازالت المدارس الفلسفية توحي لنا . . بـما الحكمة؟ولماذا كل شيء ؟ .

وهو في اتساقه الحميد بالفلسفة، وانتباهه إلى التاريخ الفلسفي والنظر نحوه باحترام وتقدير هو في ذلك يستقل مركبة العلم بروح وهّاجة مفتونة بإجابات حاسمة .

العلم يهمس في أذننا بذلك، بأننا لا نعيش عصرالعلم وفقط وإنما نعيش به وفيه وإليه، إنه الغاية والوسيلة . . الفرض واليقين.

بل للعلم الحق الكامل في محو كل تاريخنا . . كل ماضينا ليكتب مخطوطة البشرية كما يرى وكما يشاء.

لكن حين نتتبع الفرشات الصغيرة والخرائط المعقدة لعلماء الحفريات (الأركيولوجي) التي كتبت لنا عن ماضينا، عن عادات أجدادنا المطمورة بالماضي، برديات المصريين، ألواح بابل . . كل ما تبقى، نلحظ أن كل ما تبقى يبتسم للدين، الكلمات تشير في خفاء لفكرة عنيدة . .(العلو) .

الدين مندس هناك أيضًا، لا الفلسفة وحدها، لا العلم وحده

تاريخنا أيضًا حضارات لا نلمح منها غير بقاياولكنها البقايا الأجنة لكل ديانات وأديان العالم.

الدين

إنها مشكلة الدين، خلاص البعض والعثرة الكؤد عند البعض.
عالمنا يحتاج الآن كحضارة علمانية لأن يصطحب الدين بصورة أخرى بعيدًا عن ترسبات الماضي خاصة ذكريات أوربا الوسطى التي نعاقب جميعًا عليها.
فالدين جزء من تاريخ نبوغنا .. التفاتتنا الأزلية لحبكة الوجود و خطة المجيء وغموض مصيرنا، أيضًا فكرة هي الأشد بهاءًا أننا موصولون بعالم أسمى .. انتهاؤنا حيث اللانهايات المحض، أن الكون كله ينحني لنا.
إننا لا نشك في حاجتنا في الألفية الثالثة لأن نغسل ذاكرتنا كل صباح لا لأن نمحوها ..
نحتاج لأن نعيد ترجمة أرواحنا ونكتب وجودنا بصورة طازجة شابة علينا أن نغير حيواتنا بل علينا أن نغير العالم بأكمله..
إننا نلمس فلسفة التغيير فوق جدران تاريخنا كله .. حين مهّدنا لتحويل حجر إلى سكين أو جذع شجرة لقارب.
حين هذّبنا أحلامنا وتخلّقنا بقيم ما ـ مُثُل ما ـ حين اكتحلنا بالحكمة ودوناها ، حين جسدنا خيالاتنا فنسجنا أساطير ومدن هائمة مستحيلة ..
إننا نغيّر، حقًا إننا نغيّر .. ولكن أي نمط من التغيير نحتاجه الآن ؟

الأديان وهبتنا لذّة التّوق إلى التطهر، الخلاص، الميلاد . . كان التغيير حالة من حالات الترقي، الاندفاع لميلاد جديد، تتحدث آثار إخناتون عن لمسة دسمة للطوق للاندفاع، للحركة، فكان أول ظهور للعجلات الحربية ذات الحصانين.

أحب أن أبدأ الحديث عن الدين بالحديث عن (الفراغ) .

إنه تشبيه غريب بعض الشيء لكن لنبدأ . .

في الفيزياء الفلكية يطلقون على الفراغ: أن ثمة نوعين من الفراغ ، فراغ حقيقي وفراغ مزيّف.

كلاهما فراغ واحد، فراغ محض، لا فرق إطلاقًا بينهما لكن الفراغ المزيّف هو اللاشيء، هو العدم بمفهوم المتصوفة المسلمين.

بكلمات أخرى هو (ماضي) الوجود، العدم الذي يسبق ميلاد الحياة، إذا جاز التعبير المادة التحضيرية للمادة الحقيقية .

يفترض العلماء أن الكون في انبثاقه الأول كان غنيًّا بالفراغ المزيّف، فهو الفراغ النشط القادر على منح الحياة القصيرة جدًا لجزيئات صغيرة جدًا (دون ذرية) تولد فتموت، وربما تكتسب (تفترض) طاقة عالية تمنحها حياة أبدية وجود حقيقي، الدين يلتئم بهذا الافتراض الغريب في شرحه للحقائق الكبرى إنها موضوعات (الغيب)، العالم الخفي .

برع المتصوفة المسلمون ومن قبلهم المعتزلة في الحديث عن ذلك العدم.
العدم الغني بوجود فريد، مصطفى محمود في كتاب جميل (الوجود والعدم) يقول:

(لو كان العدم معدومًا لما كان له معنى في الذهن)

فالعدم كلية من الكليات، وكل كلية تندرج تحتها حقائق
وهو كلام قريب من كلام الإمام محمد عبده.
هذا الدين . . هذا الفراغ المزيف . . هذا المخزن الثري لخلاصنا . . هذا العالم الـ (غيرعالم) .
الأرض الـ (غير الأرض) تحدث عنها أفلاطون في شرحه للمُثُل . . تحدث عن مفهوم (العالم الحقيقي) .
إننا حسب افلاطون نعيش وجود مزيف ، نعيش كأفراد مكبلين في كهف، أفراد لا تملك سوى أن تنظر أمامها فترى أشباحًا تتحرك على جُدُر .
هذه الأشباح هي ظلال أولئك المتحركين خارج الكهف .
يقصد أفلاطون بالظلال هنا ظلال المُثُل . . الوجود الحقيقي.
نعود مرة أخرى لكلمة (دين) وهي كلمة عنيفة تعمّق معنى الاعتناق الوثيق لفكرة ما .

فكرة أغرب ما فيها أنها دومًا مرتقبة، فراغ ثري، عالم يشبه فكرة العوالم الموازية .

لكن هذا الهامش المرتقَب انتبهت إليه فيزياء الفراغ المزيف، افتتنت به الفلسفة .

إن هذه الصورة الملموسة في ذهني، الوشيجة الخفية بين العلم والفلسفة والدين تكاد تكون خلاصًا ما للعالم.

أريد أن أوضح فقط أن هذا ليس مجرد تلفيق وربط أشياء وقراءات مبعثرة لو عدنا مثلاً لتاريخ الفلسفة سنجد الدين، لو عدنا لتاريخ العلم سنجد الدين وهكذا . .

مثلاً . .

في الفلسفة القديمة ما قبل سقراط لمحة صوفية تتضح بقوة في مدرسة (الفيثاغوريين) .

بل يمكننا أن نتحدث عن أناكساجوراس الذي رد العالم إلى العقل . . وكلمة العقل توحي بتجريد ثري للإله . . فهو المبدع حسب وصفنا كمسلمين لله عز وجل.

يمكننا أن نتحدث بوضوح أشد عن أكسينوفان طليعة المدرسة الأيونية يقول أكسينوفان أن الله قديم أزلي، الله لا يتغير بل هو ثابت وكان الثبات عند اليونانيين بمعنى الكمال، فالتغير يُعني حاجة الشيء لأن يتغير أي أنه ناقص خاضع لحالة نمو ونضج .

ثم يرى أكسينوفان أن الناس قد أساءوا إلى الله فصوَّره كل بحسب حاله.
هكذا وبمنتهى الوضوح نلمس مدى التذاوب بين الفلسفة والدين.
أيضًا نظرة لتوما الإكويني وعصر كامل من الفلسفة المسيحية اللاهوتية تكفي لنفهم هذه الوشيجة الناعمة الحيّة بين الدين والفلسفة.
ورغم أن حضارتنا الغربية تُعَد الوحيدة بين الحضارات التي تخلو من النزعة الدينية إلا أننا نجد لساجان عبارة مؤثرة يقول فيها أن العلم ليس متوائمًا فقط مع الروحانية بل إنه مصدر عميق من مصادرها.
الدين إذن أحد أعمق جذورنا الممتدة في بنية التاريخ، أحد أهم الأحداث التي لم تكتف بخضوعنا القلبي والروحي لها وإنما نسجت لنا المُثُل والقيم بصفاء نادر وثراء أخّاذ.
ومازال عالمنا في ألفيته الثالثة يسرد حياة النبي موسى والسيد المسيح وسيدنا محمد بنوع من الفتنة أو الغيرة.
ومازال ولو بصورة مزيفة نوعًا ما تابعًا لأولئك القديسين.
أين تكمن المشكلة إذن ؟
دعنا نواجه نشاطنا الحضاري نفسه.. من الصعب علينا أن نصدق أن خيبة الأمل التي تعترينا هي خيبة حضارية نوعًا ما.. نوعًا ما كان يجب أن يُستعمر العالم أو تُعاد صياغته.. نوعًا ما كان يجب أن نتخذ موقفًا صارمًا تجاه معرفتنا الدينية..

جيد إذن أن نصل لهذا التساؤل . . كيف يفكر عالمنا الآن؟

لا أنبياء . . هذا هو عالمنا ، عالم بلا أنبياء . . يستاء من فكرة اليقين، يكره كتابات تتحدث عن إيمان مطلق بعالم الغيب تطير فيه الملائكة وتتأوه الشياطين ويختبيء الجن في كل مكان.

ولطالما خضع لتطور عنيف انتهى إلى ركيزة الدين الأساسية إن لم تكن قد ماتت فإنها لا تعنينا . . الله لا يعنينا .

ونرى بصورة ما أننا آلهة صغيرة في عالم بلا آلهة . . وبصورة ما نرى أن علينا إعادة إنتاج العالم ونرى أننا وحدنا القادرون على ذلك.

ونتحدث عن الله على أنه ينتظر خارجًا ونحن نحلل وننقد ونضع المذاهب ونتمركز حول أنفسنا ونتهامس بالداخل كي نقرر هل يدخل أم لا .

الله حسب حضارتنا حتى الآن مجرد المحرك الأرسطي القديم الذي يحرك ولا يتحرك . . مجرد خالق للعالم قديمًا . . هو الآن منسحب أو عليه أن ينسحب أو لا يملك غير أن ينسحب.

فالعالم الآخر والنزعة الأخلاقية والأديان باتت كلاسيكيات فوق أرفف تاريخنا . . الدين حضارة ذهنية لأجدادنا يجب أن ينالها ما تستحقه المتاحف!

المتاحف وفقط.

بل دعنا نلتفت بجدية لكلمات الفيزيائي الفلكي ستيفن هوكنج . .

عالمنا حسب هوكنج جاء هكذا . . الله غير موجود . . دوكنز قالها هكذا . . الله وهم.

تنبأت الفلسفة بموت الله لكنها أيضا أعلنت موت الإنسان . .

الآن . . ماذا عنا ؟

لماذا لم يتوقف العالم عن شروره بعدما تخلى عن الله . .

أيضًا إلى أي مدى نضجت حرياتنا التي نحارب الله من أجلها ؟

هل الانسان حر فعلاً الآن ؟ والعالم هل هو أجمل ؟

العالم الذي نهرع كل لحظة لبنائه ، الذي نذوب فيه ، عالم ما بعد ثورتنا الصناعية وثورتنا التكنولوجية وثورتنا الإلكترونية . .

عالم الإله الأرضي خالق الربيوتات، المسافر عبر فضاء المادة ، هل هو أجمل أم أن كل ما فينا مدن معزولة منعزلة ،قلق مارد عن ما المستقبل ؟ من أنا ؟ما كل شيء ؟

إن كل ما نهرع إليه أو به طريق مرصوف للموت ، للوحدة.

هندسة أفكارنا تفوح بفساد لا يُطاق . . فساد أرواحنا، خواء مناهجنا ، نضع عيوننا على ميكروسكوبات تكبر لنا ما وراء المادة نضع آذاننا بعيدًا عبر سنوات ضوئية لنلمح كيف يمارس وجودنا وجوده؟ كيف تتصرف الأشياء ؟ .

نكبُر فينا حتى الثمالة ونعيش آلهة لا تعرف كيف هو المستقبل وكيف سيبدو موتنا وأفكارنا للأجيال القادمة.

يبدو أن الله ليس وحده مَن ينسحب من عالمنا، إننا نمارس طقس انتحاري . . حضارتنا تقدم لنا رفاهية الموت الروحي . . إننا نرفض بعقلانية شديدة (الله) الذي لا نملك سوى أن نهفو إليه بقلوبنا وعقولنا عبر كل تاريخنا وحضاراتنا .

يرى الدينيون عالمنا عالم يحتضر لأنه مغلق بائس .

عالم بلا دين هو عالم بلا روح.

أي عالم ميت.

فالعالم في نظرهم بات يحتفي بماديته، والعالم الذي يحتفي بماديته عليه أن يدرك أنها مادة مصمتة عمياء، مادة غير منضبطة أبدًا ذاتيًا .

حضارتنا حسب محمد أسد عوراء . . بها عَور . . عرجاء، ترى الأمور بعين واحدة وتسير على قدَم واحدة.

والبديل الرائع الذي يقدمه الدينيون عودة القداسة.

وكلمة مقدس تعني منفصل . . متجاوز.

أحيانًا تعني ما يقدم أو يخصص للرب . . أي أن نخصص من جديد عالمنا لله ونحيل كل ما يحدث أو سيحدث إلى الغيب. أي أمور غير خاضعة للرصد أو التجريب.

أخيرًا لماذا يبدو الله غريبًا مرفوضًا لحضارتنا العلمانية لهذا الحد ؟

هذا هو السؤال الذي نحتاج أن نراه جيدًا .

الخطوة الثانية

« أخطاؤنا النبيلة »

إن الله لا يقف عند عتابات أرواحنا وإنما فينا .
وما حياتنا إلا كيف نتعلم أن نخطو نحونا، وأن نعثر على أنفسنا، ومشكلة الروح أنها سمائية، علوية . . لذتها، طموحها، سعادتها سمائية.
إن رحلتنا الداخلية صعبة إذن لكنها حقيقية.
مؤلمة ولكنه ألم خلاّق، معاناة وكفاح مرير لكنها ليست عبثية فثمة شيء نقي فينا، ثمة أنفاس جمالية للعالم من حولنا، ثمة غاية نبيلة . .
ونحن كائن فريد لاشك لكننا أخطأنا طيلة تاريخنا وأيضًا هذا لا يعني أن تاريخنا في ذاته خطأ أو عبأ .
تصور البعض منا أن حياتنا بلا معنى بوجود إله متخفي . . مبهم!
فاجتاحته رغبة لا محدودة في أن يلمس جغرافيا الله في أرواحنا وأن يخضعه لحواسنا، مِنَّا فعلاً مَن جسَّد الله بيننا والتمس حضوره المادي من حياة شخصيات أبهرتنا جميعًا على رأسهم السيد المسيح.
ومنا مَن شغله الله بأدب جَم وحب لا نهائي ، يعتز بحياته لكنه لا يرجو من ورائها خلودًا أرضيًا أو تعلقًا جسديًا وإنما يشمل بالتماس روحه وهي تتهادى في سلام داخلي تستشرف روعة الخالق.
يرى الحياة تدريبات عابرة أو قاسية للوقوف الهادىء عند وجوده فينا . . وجود الله.

المسلمون يطمئنون لهذه الحالة القلبية.

ومنا مَن تصور أن العالم أُعد بطريقة ما لحرب طويلة، لا لأن تاريخنا كله حروب تنتهي لتبدأ وإنما لأن ثمة حرب داخلية، حرب مؤلمة دفعت بنا لإنكار قوة عليا مهيمنة، رفضت الروح وكل وعي ذهني بطموحاتنا الروحية.

ماركس قديمًا آمن بذلك الرفض واستمد من هيجل ميله لعالم مغلق أرضي أخطاؤنا جاءت من هنا.

ظننا اننا حسمنا كل الأسئلة وقدمنا خلاصًا لكل آلامنا وحاولنا أن نبسط ما لا يمكن تبسيطه، فالله وهم والدين نسخة منقحة للأساطير، والأنبياء غير موجودين في كتب تاريخنا.

إن الخلاصة من وراء جهودنا العقلية الضخمة هي أن الأديان كانت أكثر مسرحيات العالم حبكة ومرارة حين جعلت من أذهاننا جميعًا مسرحًا لخيالات بائسة.

السؤال الآن . . أين تكمن عثرة قلوبنا في فهم العالم؟ ، لماذا توقفت طموحاتنا فجأة؟ ولماذا تحجرت عقولنا تجاه الدين، الأنبياء، التاريخ الديني الله؟

ثمة أخطاء غيّرت لنا مفاهيم الدين ، الأنبياء، التاريخ الديني، الله . . أخطاء تكاد تكون قاتلة رغم نبلها.

أخطاؤنا النبيلة

ما خطورة أن نضع الدين والأسطورة في بوتقة واحدة؟
عندها . وهذا ما حدث فعلاً . لا يمكن أن نفسر الدين من (وحي كتب مقدسة، تاريخ ديني، أفكار عقدية أو تشريعية) بعيدًا عن الأسطورة.
الأمر الثاني: سيتم تناول الأديان ككل ، بمعنى الأديان كحزمة واحدة فاسدة مريضة مطعَّمة بالأساطير .
الأمر الثالث: أننا لو انتبهنا إلى الأسطورة نجد أنها أصلاً نتاجًا حضاريًا أي نشأت في بيئات تراكمت فيها المعرفة وساعدت الانسان على تخطي مشكلات معرفية ما، لو انتبهنا لذلك سنتقبل فكرة خطيرة . . فكرة عصر ما بعد الدين.
ويكون من السهل ادعاء أن التطور الحضاري تطلب على هذا الأساس تسلسلاً مرنًا من أسطورة إلى دين. . إلى ما بعد الدين.
كما أن الحضارات القديمة اعتمدت على تراكم المعرفة. أما حضارتنا الآن فتعتمد على (تغيُّر) المعرفة.
بمعنى. .
أن المزج قديمًا بين الأسطورة والدين كان ممكنًا، أي ظهور الدين لا يتطلب إلغاء (الثقافة الأسطورية) . . فالحضارات كانت تراكمية المعرفة.

أما المزج الآن بين العلم والدين فغير مجدي وغير ذي قيمة لأن العصر الذي نعيش فيه لا يعتمد على فكرة التراكم وإنما (التغيُّر) .

فالتراكم مرفوض حتى على نطاق العلم نفسه الذي يمثل روح حضارتنا الآن مثال ذلك . .

قديمًا لم تكن هناك مشكلة في أن يتوج الإسكندر كابن آمون . الإسكندر الذي لا ينتمي للثقافة الفرعونية . وبعدما انتشرت الثقافة الهيلينية لم تجد ضرورة في محاربة ديانات الشعوب الخاضعة لقادة الإسكندر .

وحين ظهرت المسيحية كديانة رسمية لم تمانع أبدًا في أن يتحدث باسمها فلاسفة رواقيين أو ينتمون للأفلاطونية المحدثة بل صبغت المسيحية بالصبغة الهيلينية حتى أن كلمة (**jesus**) يونانية وامتد الأثر الهيليني للعقيدة نفسها اللوجوس، الهوموسيوس (الجوهر)، أقنوم . . إلخ وكلها كلمات يونانية لا جذر إنجيلي لها .

أما على نطاق العلم فرؤية بطليموس تم إلغائها للأبد بعد كوبر نيك .

ولا أحد يستطيع أن يحيي نظرية الضوء الصادر من العين عند اليونان بعد نسفها بتجارب ابن الهيثم رغم ولائنا التام لليونان كأصل شبه وحيد لحضارتنا .

إذن وباختصار . . المزج سيؤدي لرد الدين بأكمله لعامل بشري متهوّر وخيالي وعبثي لحد ما وهو الأسطورة مما يمهد لإلقائه بعيدًا عن الذّهن دون حرج.

السؤال من جديد : هل هما هكذا فعلاً؟. هل بدأ الدين كأسطورة؟ لا.

فلو تأملنا الأسطورة والدين من عدة أوجه سنجد رؤية تختلف كلية عن الرؤية السابقة.

خذ أولاً: المنشأ.

نشأت الأسطورة في بيئات زراعية مستقرة ، بابل، مصر، أي في جو حضاري، أما الأديان فارتبطت بقبائل متنقلة (صوت صارخ في البرية).

ثانيًا: التناول

الأسطورة تناولت الطبيعة وظواهر الطبيعة ومستقبل الطبيعة.

في حين الأديان تحدثت عن ما فوق الطبيعة، تحدثت عن عالم آخر وعن إله متخفي . . لا يُرى.

ثالثًا: العلة.

الأسطورة ولأنها كانت نتاجًا حضاريًا بامتياز أرادت أن تضع الانسان في علاقة مغلقة مع الوجود . . أسطورة سيزيف وحركته المملة نازل طالع وفوقه صخرة تعبر عن ذلك . . فعِلّة الأسطورة الإجابة على

(كيف يمكننا أن نعيش) في حين الأديان تتحدث عن غايات كبرى ، عن نهايات لكل آلامنا ومخاوفنا؛ فعِلَة الأديان إذن هي (لماذا نعيش) .

رابعًا: الأدوات

الأسطورة كانت نظرة الكهنة للعالم، فكانت خليطًا من الملاحظة والتأمل والتراكم المعرفي . .

بمعنى أنها لحد ما كانت رؤية علمية عند الحضارات القديمة.

ويقول جورج سارتون أن العقلانية انطوت على اللاعقلانية، أي أن مشوار العلم هو محاولاتنا الدءوب لإبعاد اللاعقلانية التي ساهمت أساسًا في نشأته. .بمعنى أن الأسطورة كانت نتاجًا عقليًا أداتها لحد كبير العقل في حين أن الأديان ترتكز مادتها على الوحي.

أخيرًا: الأثر

الأساطير هدمت حضارات وجعلت بقاياها أشياء تثير الشفقة . .

فالحضارة الفرعونية وهي أعظم حضارات العالم القديم أروع ما تبقى منها مقابر.

في حين أثر الدين . . خذ الحضارة الإسلامية مثالاً.

إذن لم تكن الأساطير أبدًا طريقًا إلى الأديان ولا كانت الأديان أبدًا ثمرة على شجرة الأساطير، فلا يمكن أن نفسر نتاج الوحي على أنه نتاج العقل، ولايمكن أن نتناول الأديان ككل . .كحزمة واحدة .

إلا أن حضارتنا العلمانية تبنّت هذه الأخوة المريرة بين الدين والأسطورة.
هذا هو الخطأ الأول الذي أزعج آباءنا المفكرين ودفعهم لإبداع لا دين جديد فحسب وإنما إنسان جديد . . نيتشة تحدث عن الانسان الجديد وبعبارة دقيقة خلق انسان أعلى.
سارتر فتح بابًا تتسرب منه آلهة صغيرة، بابًا في عقولنا، والانسان الأعلى هو أجمل أحلامنا لكن الاستغراق في الخيال يقوّض الواقع.
إن نيتشة لم يحضر بيننا إلهًا أرضيًا وإنما أحضر أمر متعب (موت الواقع) فنهضت فينا حروب غريبة قادها الانسان الحالم الذي يضع نصب عينيه العلو وسارتر جعل من الانسان الإله الجزيرة . .إله وحيد لا يملك سوى الاكتئاب والضمور.
يقول رمضان لاوند:
" لقد أعطت الوجودية أنصارها غرور الإله وعجزت عن أن تمنحهم قدرة الإله على الإبداع والخلق والإيجابية في البناء والتنظيم".
لكن لما كان مزج الدين والأسطورة خطأ (نبيل) ؟
إن مّا حركنا بقوة نحو هذه الحفرة رجال الدين النبلاء الذين صنعوا تاريخًا مقززًا للأديان.
الاستماع لكلمات السيد المسيح عن الفريسيين أو لآيات سورة البقرة بالقرآن

يمنحنا شعورًا بالرعب تجاه غباء بني إسرائيل، وفي إنجيل متى يبدو المسيح وديعًا رقيقًا في كلامه عذبًا في التطويبات، وما أن يبدأ الاصحاح الثاني عشر حتى نلحظ تحوله العنيف من وداعة لا مثيل لها لحدّة قاسية واضحة، فقط لأنه صار يتحدث للفريسيين (يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار)، ثم التطلع لكل التاريخ المسيحي يجعلنا نقول مع الغزالي عن المسيحية أنها مجرد (طفولة فكرية) . . فسرعان ما تحوَّل الأتباع لفريسيين من جديد فنجد كتابات المسيحية الأولى تتحدث عن هرطقات كثيرة جدًا . . هرطقة مقدونيوس والأبيونيين وقليدونيوس وأبوليناريوس وآريوس ونسطور وأوطاخي ويوسابيوس وفالانتينوس وبولس السموساطي وماركيون والمانيين وموتانوس وأنوميوس وسابيليوس ومكيدونيوس . . إلخ. ونحن لا نعرف أي كتابات لهذه الهرطقات . . نُسفت جميعها ولم يبق لنا سوى ما أخبرتنا به الكتابات الكنسية عنها كونها هرطقات تمس العقيدة إن لم تكن في صميم العقيدة . . وهناك ملاحظة عجيبة حين نجد أن لقب ابن الله ضد إبيون . .

ولقب ابن الله ضد فوتينوس

ولقب ابن الله ضد بولس السموساطي

ولقب ابن الله ضد آريوس

ولقب ابن الله ضد سابيليوس
وضد المانيين وضد اليهود وبالطبع الآن ضد المسلمين .
وتسمي الكنيسة الأورثوذكسية آريوس وسابيليوس بالوارثين للأخطاء الوثنية !
هذه التسمية قريبة من تسمية الكنيسة الكاثوليكية للأتراك بالهمج الوثنيين .
المسلمون ارتكبوا نفس الخطأ حين تحوّلوا لفريسيين جدد وأصوليين جدد (فصل الاسلام البغيض) .
الآن نعود لآخر تساؤل عن خطئنا الأول . .
لماذا نظرنا للأسطورة والدين كوجهين للشيء نفسه؟
ساعدت اللغة على قابلية المزج أو الادعاء بأن الدين بدأ كأسطورة
نلحظ مثلاً كلمات عنيدة توحي بأن الأسطورة كانت جذرًا راسخًا في أبسط مرادفاتنا الدينية . .
فآمون مندسة في آمين . .
وحور وأوزير ومنتظر إيبور يلوحون من بعيد ليسوع . .
وطه طاهاب ورحمن في رامان . .
وإيل في إسماعيل . . إلخ.
وهذا لا يعني في الحقيقة أن الأسطورة رافد وإنما يشير إلى أن الأسطورة تأثرت بدعامات الدين القوية . الله، الأنبياء، الخلاص ، فمنحتها هذه الدعامات بعدًا أدبيًا وحضاريًا مثلما يحدث الآن في الروايات التي تستند لحقائق تاريخية أو علمية .

خطوة أخرى . . يمكننا أن نلاحظ جيدًا أننا تجاهلنا كل الفروق بينهما سواء في النشأة و التناول، العلة، الأدوات و الأثر والتفتنا لبراعة الأسطورة والدين في إيجاد إجابة واحدة عن مشكلات مرهقة ومؤسفة تعثرت فيها قلوبنا . .

لماذا نموت؟ وكيف نعيش؟ يمكننا أن نعيش للأبد . . ولما لا نعيش للأبد ؟ ماذا بعد الموت؟

إجابة واحدة في مواجهة مشكلة واحدة . . موتنا .

الآن دعنا نتخيل بالفعل كيف مات القدماء، كم الأسئلة التي دارت في أذهانهم وهم يودعون أنفسهم، سنفهم هذا الموت وهذا الوداع حين ندرك كيف أرَّخوا لموتهم بطريقة الدفن نفسها . . الدفن على هيئة الأجنة.

فكان مجرد وضع الأطعمة والأدوات مع الميت يعني لنا تحديهم ورفضهم للموت، رفض الموت عبَّرت عنه الأساطير وتأثر به الفكر الديني فكان بمثابة إجابة واحدة في مواجهة مشكلة واحدة . .

ومادمنا نموت كل لحظة فسنظل نصنع الأسطورة كل لحظة ونصطحبها في ملهاة وجودنا ، وسيظل الدين ـ كأديان ـ قائم حي نافذ بنا لما بعد الموت.

وأنا هنا أصف حالة حضارتنا التي تجاهد للتخلص من الدين (الواحد) بحجة أنه (دين أديان)، أي حالة جينية معدَّلة للأساطير وهي في حقيقتها ـ أقصد حضارتنا ليست حاضنة للأساطير وحسب وإنما منتجة لها .

دعنا نحضر ك .آرمسترونج هنا في كتاب موجز تاريخ الأسطورة
نلاحظ نظرتها المسالمة للأسطورة وكأن الأسطورة موقفًا دراميًا للانسان تجاه العالم وتجاه نفسه، تساءلت
ماذا تعني الرواية لنا الآن
ما القيمة الحقيقية للتدوين الروائي ؟
أرادت أن تقول أننا مازلنا هناك تجتاحنا الأساطير أو تفوح منا .
كانت الأساطير إذن سرد روائي لأحلامنا ورغباتنا وتوثيق لحياة مضت فأدب الرواية عند آرمسترونج ماهو سوى حنين لخلق أسطورة أو نضج في البناء الأسطوري الذي يضرب بجذوره في كل حضارات العالم القديم.

الخطأ الثاني.
الأنبياء خارج التاريخ
ماذا تعني كتابة التاريخ؟

كتابة تفاصيلنا الصغيرة، أدوات طعامنا البسيطة، عاداتنا، صلواتنا تنهدات أجدادنا وشذرات أرواحهم ماذا تعني؟

يشير التاريخ لحبكة درامية في حياتنا ويُصرّ بحكاياته كلها عنا أن يجعل منها حياة لا تنتهي . . وجودنا كقيمة.

نضال. .

وأي نضال أعمق من نضال الأنبياء؟ . . البحث والمثول لفكرة نقية.

نلاحظ مثلاً في الحضارات القديمة نزوحًا لغاية مثالية وعلو خلاّق طيب وكلمة (قربان) في الديانات والأساطير القديمة تعود جذورها إلى (قرّب) أي أنها لحظة مشرقة في حياة القدماء ، لحظة تقرُّب . . مسافة تم تخطيها فينا ، عَود ما نستدعيه ، حتى تطورت لمفهوم التواصل بين ما نحن فيه وما يجب أن نكون عليه وجوديًا . . صارت عادة لاصطياد سلام لانهائي ، للحب المرهوب ، للتطهر والتذاوب بعالم أسمى.

بدا واضحًا في كل الحضارات القديمة السعي لنفس مطمئنة ، لرغبة دافئة مجنونة في وجود لا فساد فيه ، لا موت ، لا عبث ، لا ألم .

كيف إذن يصير الانبياء خارج التاريخ؟

الأنبياء في قصاصات عابرة بكتب التاريخ مطرودون، قطاع طرق ، خارجون على القانون ، مفسدون للشباب . . . هكذا بدوا .
لماذا ؟ ولماذا لم يبق لنا سوى مدينة مدمَّرة (مدينة آتون)، وأنبياء قطاع طرق يوشع بن نون وخارجين على القانون الزيلوت .
لماذا النبي إبراهيم غير موجود، النبي موسى غير موجود ولماذا حاول مانيتون أن يقنعنا بأن اليهود قوم مرضى ملوثون، وجاء وصف السيد المسيح بالمجرم أو صاحب شطحة .
والآن يتأهب المؤرخون لكتابة يوميات الإسلام الارهابي وعرضه كدين ضد الحياة كما برعوا قديمًا في وصف النبي محمد كوثني يقبل حجر .
لماذا فعلاً تجاهلنا تراثنا الديني ؟
الأمر الأول: لأن الديانات السماوية الثلاث ثورات حاسمة، كفاحًا عقليًا لا سلطة له غير العقل، فكان رفض النبي إبراهيم لوثنية أور رفضًا عقليًا لا سلطة فيه لغير العقل .
كان إبراهيم شابًا شديد الايمان بالتأمل .
يحكي القرآن عن رحلة عقلية واضحة له في التساؤل عن الله، أيضًا في حواره ضد السلطة التي ادعت إحياء الموتى !
الأمر الثاني: كان الدين نخبوي بالضرورة لا النخبة التي تفرضها المجتمعات وإنما النخبة الحقيقية التي تحركت وراء موسى وعبرت

معه فوق الماء، الحواريون القلة الذين استجابوا للسيد المسيح
المهاجرون القلة مع النبي محمد .
الأمر الثالث: المعاناة الداخلية للأديان .
الأديان تموت بأيدي مؤيديها، لايهدم دين من الخارج أبدًا ولو كان دينًا وضعيًا
الأمر الرابع: مَن يكتب التاريخ . . ؟ ومتى يُكتب . . ؟
مثال بسيط . . عام ١٤٥٣ ميلادية فُتحت القسطنطينية . . لو تمت ترجمة هذا الكتاب للغة أوربية سيتم وضع كلمة (سقطت القسطنطينية) بدلاً من فُتحت.
أما إذا تحدثنا عن أثر هذا الفتح أو السقوط فيمكن أن نجد احتمالات متناقضة للسرد فمثلاً يعد هذا أمرًا طيبًا للعالم بسقوط كنيسة شرقية مزيفة ليس حسب المسلمين فقط وإنما حسب روما التي تراخت في مساعدة القسطنطينية إلا أن البعض يرى أن السقوط كان ضربة قاتلة للمسيحية رغم أن علماء المسيحية الذين هربوا لروما بعد السقوط تسببوا في إحياء فلسفي ومعرفي للعقيدة المسيحية . . ثم كيف نستطيع أن نفهم التغيير الذي حدث للعالم ففي الشرق ينتصر المسلمون وفي الغرب بالأندلس يتم طردهم.
إننا إذن أمام تاريخ لم يُكتب وإنما كل ما نقوم به هو أننا نحاول كتابته . .
مثال أكثر عمقًا . . ماذا يحدث لو جلس مسيحي أمام مسلم وتحدثا عن النبي داود أو سليمان؟

إننا سنجد أنفسنا إزاء شخصيتين متناقضتين تمامًا لدرجة أن المسيري حين تحدث عن أنبياء وملوك العهد القديم تناولهم على أنهم شخصيات أخرى لا علاقة لها بشخصيات القرآن فإبراهيم التوراتي غير النبي إبراهيم بالقرآن وداود الملك التوراتي غير النبي داود وسليمان التوراتي غير النبي سليمان. . والمضحك أن كلا النصين مقدس.

ولو أن الملك داود أو سليمان أو لوط قاموا بما قاموا به أيام البابا شنودة الثالث لكان تم شلحهم . . بل دعنا لا نقف عند الكتابات المختلفة لحدث معين أو حول شخص معين . . دعنا نلتفت لما كُتب بالفعل

بسفر (هوشع) يقول الرب للنبي: اذهب وتزوج زانية . .

من السهل فهم (زانية) هنا على أنها صدمة متعمدة من الرب يصف لنا من خلالها زنا شعبه وخطيئته . . فالأرض كلها صارت زانية.

وهنا يكون التفسير حسب الرمزية التي يتمتع بها الكتاب .

لكن مفسري الكتاب يضعون لنا احتمال آخر . . فالرب هنا يقصد أن المرأة التي سيتخذها هوشع ستزني وهنا يكون التفسير خاضع لفكرة النبوءة بالكتب . .و لكن

هنا يصطدم التفسيران . . هل كانت زوجة (هوشع) زانية أم لا، ففعل الزنا ليس بالأمر العابر كما أن سرده لم يدوَّن في كتاب عابر . . إنه الكتاب المقدس.

لكن الإجابة الأكثر طرافة هي :
هل تزوج هوشع فعلاً؟ أم أن الأمر كله رموز !
والأمر يصير معقدًا أكثر حين نكتسب أدلة من النصوص توضح أن كتابة الأسفار كانت ربما بعد جيل أو جيلين أو أكثر من الأحداث . .
هنا كيف سنصدق فكرة نبوءة الزنا ؟
نجد عامةً أن روعة الكتاب المقدس تكمن في أنه يقوم على شيئين في غاية القوة هما الرمزية و النبوءة.
الأساطير التي تلهم أدبائنا للآن والتي ساعدت فرويد في تحليلاته وكامو في وجوديته تتكأ على الرمزية كروح وهّاجة تملؤها ثراءًا . أما الكتاب المقدس فهو لا يكتفي بالرمزية الكفيلة بإبقائه حيًا نابضًا وإنما يتعالى على الأساطير بحضور النبوءات . . أيضًا حضور الأنبياء الساحر . .لكن رغم روعة هاتين الأكمتين اللتين جعلتا نصوص الكتاب حية نابضة ببشريتنا إلا أنهما تسببتا في غموض مربك في قصة زوجة (هوشع) مثلاً، في حياة سليمان، في الحديث عن الرب نفسه.
في النهاية أصبح تفسير التاريخ اليهودي القديم على أساس منطقي موضوعي حسب ما جاء بالكتاب أشبه بتفسير حركة الكواكب والأجرام السماوية على أساس نظرية كوبر نيك . . فثمة عاطفة غير عادية تقف وراء النصوص ترغب بكل قوة في تحويل التمجيد للأنبياء لتمجيد عام للشعب كله فالأنبياء يخطئون تمامًا مثل الشعب.

للآن مثلاً نجد التيار السلفي عند المسلمين يمجد معاوية وكأن الأحداث التي غيرت العالم بالفعل وانحرفت بالاسلام لفساد سياسي لم تقع أبدًا . . فمعاوية حسب السلفيين صحابي . . أما صمته أمام موقعة الجمل وأداؤه الرائع بصفين ووأده للشورى وحكمه المستبد وتولية يزيد كلها أمور هامشية لا أثر لها على العالم الإسلامي إطلاقًا .

هذه قراءة التاريخ بعين رجال الدين أنفسهم . . سقوط أو فتح . . سليمان التوراتي وسليمان في القرآن . . زوجة هوشع شبه زانية . . معاوية الطيب هنا نكتب بأهواء ونصدق بأهواء . . فكان منطقيًا وسهلاً عند مفكرينا التخلص من الأنبياء تمامًا والتعامل معهم كقطاع طرق أو منبوذين أو أساطير لا أكثر .

لكن المنطق لا يقول لنا أن الله يأمر نبيه بأن يتزوج زانية أو أن يختار سليمان الذي يقرر في النهاية ألا يختاره ويميل لإشتر والمنطق لا يقول لنا أن معاوية رجل قلبه كبير وطيب، لكن دعنا نلتفت لنقطة أهم وأعمق وهي نظرتنا كحضارة علمانية قائمة الآن للأنبياء .

ماذا كتبنا . . كيف صارت يومياتنا بدون أنبياء حقيقيين؟

مأساة .

عصور كاملة من الوثنية، عصور كاملة من الحروب، كاملة من الكراهية كاملة من الموت ، من الأخطاء .

أدق صورة خلدت فيها معنى حياتنا صورة البطل الذي تلاحقه لعنات وهو لا يملك سوى أن يهرب ويختبئ . .الانسان كبطل هارب . . منسحب.
قلما تحدث التاريخ عن أفراح تنتظر وسعادة ربما لها يومًا أن تتحقق عبر حياتنا القصيرة تلك ، واستجاب للأساطير، لتلك الصورة القاتمة، فكل أحداثها تفضح يقين واحد . . يقين المأساة.
عبَر اسخيلوس عنها في مسرحياته قبل الميلاد، وهناك بالهند تحدث بوذا عنها، عن دنس الحياة . . الحياة كعقوبة أو واقع مرير.
اننا اكتشفنا الأمر بعدما استودعنا يومياتنا صفحات التاريخ .
اكتشفنا أن فعلاً ثمة مأساة . . مأساة حقيقية لا أخطاء وقتية وإنما أخطاء قاتلة؛ أن الانسان لايمكن أن يعيش بدون فَقد، بدون حياة تثقلت منه، بدون أخطاء لا تغتفر.
السؤال الأهم : هل نجحت تلك الإبادة الجماعية لحياة الانبياء الأولى ؟
هل تم وأد أفكارهم؟
هل ماتوا ؟
لا.
من ناحية الأثر فلا .
لم يبق لنا أي انفعالات لشعراء روما الوثنية . . لقد ماتوا.
بل ماتت اللاتينية وتفتت روح الوثنية والميثولوجيا المعقَّدة التي تناقلتها

الأجيال القديمة ودونها المؤرخون بجب في مجلدات ضخمة . . ماتوا جميعًا . في حين لم يمت أثر الانبياء .

ربما تعاني الأديان ضمورًا، لكن ضمور الأديان وحسب الأنبياء أنفسهم يعد ضمورًا داخليًا .

لم تذبل الأديان لتهميشها أو تحقيرها بكتب التاريخ بل غيَرت التاريخ . . فشل مانيتون في أن يقنعنا بفساد اليهود ولا اقتنعنا بوصف المسيح كمجرم ولا يمكن أن نعطي ظهورنا لأروع حضارة جاءت بعد العصر الهليني . الحضارة الاسلامية . فكانت أغزر إنتاجًا وأطول عمرًا بل ومازالت بذورها حية في بدايات حضارتنا الغربية القائمة .

إذن لا نستطيع أن نقرأ ماضينا بدون الدين .

الأديان أول وثيقة أخلاقية كما أنها على حد تعبير ياسبرز احتضنت الفلسفة فترة طويلة .

الدين، الأخلاق، الفلسفة، العلم . . أطياف موجية لضوء أبيض واحد . . (حياتنا) .

الخطأ الثالث:

السقوط (الانهيار من الداخل)

العالم المسيحي

مثل كل المهتمين طالعت كتب عن المسيحية . . قليلة . . قليلة جدًا .
لكن مهما قرأت عن المسيحية فأنت تعرف القليل.
في لحظة ما من التاريخ الروماني تبنَّى العالم فكرة أن المسيحية هي نهاية الفكر الديني وأنها التصور الأخير لفهم شفرات السماء التي تحدث بها الوحي ، إلا أنه ما قبل النهضة الغربية كان الدين بأوربا متمثلاً في المسيحية (الكاثوليكية) فقط.
الآن كلنا يعرف فشل المسيحية التاريخية أو العالم المسيحي في دفع عربة البشرية للأمام لمدة تزيد عن العشرة قرون.
الآن تحولت المسيحية بأوربا لأكثر من مسيحية والآن تحولت الكاثوليكية لأثر.
الفاتيكان لا تتعدى كونها متحف بأوربا، لا يوجد فرق كبير بين متحف اللوفر الذي يضم الموناليزا ومتحف الفاتيكان الذي يضم البابا .
وربما الموناليزا أكثر شبابًا وجمالاً وجذبًا للأوربيين والعالم. يكفي أنها تستعيد ذكرى عصر النهضة لأذهاننا

لا فضيحة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش بإيطاليا وإسبانيا ولا حتى اضطهاد الكنيسة للبروتستنت (الأخوة في الدين) .

لكن لو اتجهنا للمنهج المسيحي نفسه سنجد محنة أعمق فعالمنا حسب المسيحية مملكة الشيطان، فساد لا أكثر .

عالمنا . . كلمة (عالم) تستخدم في الأناجيل على أنها نقيض لـ (الملكوت) .

" أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله

فمن أراد أن يكون محبًا للعالم فقد صار عدوًا لله "

يع ٤:٤

كلمة عالم هنا تشير للسقوط ، الشهوة ، الخضوع للجسد !

العالم إذن يرادف الفساد .

كتاب المسيح كما أراه للبابا بيندكت الثالث عشر وكتاب انطلاق الروح للبابا شنودة الثالث يوحيان بذلك . . برفض حاد للحضارة العلمانية التي لنا ، تحكي الأناجيل عن المجرم باراباس . .

رغب بيلاطس حسب الأناجيل في إطلاق السيد المسيح، هنا يظهر باراباس المجرم بجوار السيد المسيح ويطرح بيلاطس سؤاله الشهير: أيهما أطلق لكم.

كتاب المسيح كما أراه يضع باراباس كرمز للحضارة العلمانية، كلمة باراباس تعني تمامًا ابن الرب مثلما كان السيد المسيح يعني في هذه اللحظة المريرة التي تم اختيار باراباس فيها للنجاة .

باراباس المجرم يشير هنا لخضوع تام للغريزة، للفساد، للعالم .
إنه أرضي لا ابنًا بالمعنى الآخر الذي للسيد المسيح بمعنى أنه نقيض لبنوة المسيح، البنوة التي تعني عمانوئيل أي الله معنا .
إذن حسب البابا بيندكت عالمنا يقترف نفس الإثم، ففي كل لحظة من/ في سياق حضارتنا نختار باراباس، نختار المعرفة الخطأ، الخلاص الخطأ .

في كتاب (انطلاق الروح) يقول البابا شنودة:
"ولكن الخطية والعالم وما ورثناه عن القدامى من أفكار وأبحاث وخبرات وعادات وتقاليد ونظم وشكليات . . كل ذلك أرسب على العقل البشري رواسب كثيرة حتى أصبح زيادة على قصوره معرضًا للخطأ في كثير من أحكامه"
كل ذلك أرسب على العقل البشري رواسب كثيرة . . نفهم إذن من هذه الكلمات لما لم تتبنَّ الكنيسة العلوم ولما ساد صمت علمي من القرن الثاني الميلادي وحتى القرن السابع .
ففي أوج الهيمنة المسيحية توقَّف التوهج العلمي (الهيليني) الذي احتاج من مؤرخ العلم ج. سارتون ستة مجلدات للحديث عنه .
ويرمز بإحراق المسيحيين لمكتبة الأسكندرية العظيمة ٤١١م وموت هيباتيا ٤١٥م أو طريقة قتلها لهذا الصدام القوي بين العلم والكنيسة .

ولن يتم الالتفات لهذا الأثر الهيليني إلا بمجيء المسلمين ليبدأ عصر علمي جديد ولتقف الحضارة الإسلامية حقيقة بين عصرين من العصور المظلمة الماضي المسيحي والحاضر المسيحي أيضًا بأوربا .

واللافت للانتباه أن الكنيسة ستنعت المسلمين بنفس الصفات التي ألحقت للهيلينيين . .(الهمج الوثنيين) .

تألم الأوربيون كثيرًا من وراء الكاثوليكية ورفضوها بقوة أو وضعوها خارجًا كي يتشاركوا حضارة المسلمين أو يستعيدوا حضارتهم . . لكنهم لم ينسوا أبدًا أننا (همج وثنيون) .

لم يكن العالم وقتها متمثلاً فقط في المسيحية الكاثوليكية، كان هناك الأورثوذكس والأتراك أيضًا .

والأتراك الوثنيون . حسب روما. كانوا عدوًا كريهًا لأوروبا .

الكراهية التي بدأت قديمًا جدًا بين المدن اليونانية والفرس انتهت لكراهية أوربا المسيحية للشرق المسلم.

كانت الكراهية بداية عبر واقع مرير بتهديد المسلمين للأندلس والقسطنطينية.

أيضًا غياب ترجمة منتشرة للقرآن أو معرفة صحيحة به رغم وجود ترجمة سليمة باللغة اللاتينية عام ١١٤٣م .

إلا أن الكنيسة وللأسف سمحت لنفسها بنشر أكاذيب عن المسلمين (الوثنية مثلاً) .

كانت الكراهية أيضًا بسبب الرغبة القديمة للاستيلاء على الشرق ، كانت الكراهية أيضًا بسبب التسليم بإيمان شديد بالدين المسيحي الذي حوَّل السيد المسيح لمسيح روماني

يرتدي في تصاويره الزي الروماني

ويشع وجهه بملامح رومانية شديدة الوضوح

تتردد كلماته الإنجيلية باللغة اليونانية، لغة الثقافة الرومانية وقتها، حتى أن أوربا تعبدت له باسم يوناني (**jesus**) لقد حافظت أوربا بشدة على هذا المسيح الروماني وأحبته وارتضته إلهًا .

التاريخ واضح كل الوضوح.

فالكراهية سرعان ما تحولت لفعل فكانت الحروب الصليبية والكتابات الغريبة عن القرآن ومصير النبي محمد بجحيم دانتي ومحاكم التفتيش ومآسي الموريسكيين (الجيل الأخير للمسلمين بالأندلس) . . من ثمارهم تعرفونهم.

لكن لما ألح هنا على أداء الكاثوليكية تجاه المسلمين رغم أن العداء امتد لليهود، امتد للشعب المسيحي نفسه! (كتاب توماس آدي اصطياد السحرة عمليات حرق وإعدام ما بين ٤٠ ألف :١٠٠ ألف) .

يهمنا جدًا العالم الاسلامي وقتها . . فكانت كراهية المسلمين معاداة للعالم لا لطائفة عابرة.

لقد أسس المسلمون وقتها حضارة رائعة لدرجة أن العلم صار يُسمى العلم الاسلامي لأنه تخطّى النطاق العربي ولأن الاسلام كان إطارًا رائعًا ألهب عقول كل مفكري أراضيه يهود، نساطرة، أكراد، بربر، فرس، أتراك .

هذا الإطار العجيب السهل جعل المسلمون يتوصلون للنظم الفلكية كاملة التي استند إليها كوبر نيك ليغير التاريخ ويُنشيء بدايات العلم الحديث، أيضًا الرياضيات، أبدع المسلمون ـ أوجدوا ـ علم المثلثات، الجبر، التفاضل والتكامل . . العقل الذي يستند إلى المنهج التجريبي مثلما نرى عند جابر من حيان (أول كيميائي حقيقي كما يطلق عليه مايكل مورجان)، المنهج التجريبي عند ابن الهيثم.

يمكننا أنا نتحدث طويلاً عن الدورة الدموية الصغرى لابن النفيس، حل المعادلات التكعيبية للخيام، أول معجون أسنان لزرياب، وتحديد طول السنة بـ ٣٦٥ يومًا و ٥ ساعات و٤٨ دقيقة ٢٤ ثانية للبتاني والشيرازي أول من فسَّر ظاهرة قوس قزح، والجزري وباسم الرمّاح وزكريا الرازي وابن سينا والزهراوي . . إلخ.

كان لابد لأوربا إذن أن تدخل عصر ما بعد المسيحية . .

عصر النهضة الغربية ذات الإطار العلماني وباتت الكاثوليكية إحدى حقب أوربا التاريخية التي أطلق عليها المؤرخون الحقبة المظلمة.
صارت الكاثوليكية أثر.
وكلنا شاهدنا يوم رحيل البابا يوحنا بولس كيف احتشدت الجموع.
إذن مشهد الرحيل وحده هو الذي بات يحشد الأوربيين بساحة القديس بطرس.
تخيَّل!
بات أروع ما يمكن أن يقدمونه ليحرّك قلوبنا .. رحيلهم.

الإسلام البغيض
لماذا يبقى الاسلام أكثر مما بقى؟

سؤال قديم تردد كثيرًا لكن دعنا نفتح الجراح كاملة . . ماذا تبقى للاسلام كي يخسره ؟

تحدث مراد هوفمان بتفاؤل عن مستقبل الاسلام حتى أن له كتاب بعنوان الاسلام في الألفية الثالثة . . ديانة في صعود .

وللمفكر الإيراني سروش كتابات عميقة تمنحنا نوافذ عديدة ناحية العالم وتبث في الإسلام روح نشطة حيَّة .

ربما لأن الإسلام تحديدًا لا يحمل في طياته جرثومة ذاتية .

منهج مفتوح مرن .

كتب م.الغزالي (إن منهج القرآن الكريم في إنشاء العقائد وإنضاجها خفيف رقيق أخف من الهواء وأرق من الماء)، ويتفق المسلمون على ذلك . . على أن المشكلة فيهم لا في المنهج .

بالفعل للآن يبدو الإسلام صامدًا، ثمة ما يضيء تحت رماد انتكاسات صعبة أنهكت عالمه نفسيًا وعمليًا .

لماذا يبدو إسلامنا صامدًا ؟

النخبة . .ينعم الاسلام بنخبة حقيقية بعيدة كل البعد عن جرثومة الجمود

فالاتجاه الشيعي سمح للمد العقلاني بصورة طيبة انتهت باستيعاب المفاهيم الغربية العلمانية في السياسة .

مزج رائع بين الدين والفلسفة شديد الوضوح عند عبد الكريم سروش عند السنة نجد الأفغاني، محمد عبده، مصطفى محمود .

حوّل محمد عبده المنهج الاسلامي لبديل أو قدّمه كبديل للعلمانية .

كتابات مصطفى محمود قوية للغاية .

هناك الجيل المسلم بأوربا محمد أسد، هناك بآسيا إقبال.

حسب هذه النخبة، الاسلام هو الأنسب الآن لعصر ما بعد العلمانية .

صمود الاسلاميين ازداد بوجود عدو ذي جذور دينية بأهم مناطق الاسلام، قلب العالم الروحي للديانات الابراهيمية . . فلسطين .

العودة اليهودية وإن أفسدت العالم الاسلامي . الفاسد أساسًا . لكنها تُعد فيرسة مبطّنة بضمانة غربية غير مقصودة بأن الاسلام هو ملاذ أبنائه الأخير والوحيد .

ما القيمة إذن أو العلة وراء السؤال التشاؤمي (ماذا تبقى للاسلام كي يخسره) ؟

لأن هذه النخبة ميتة في العالم الاسلامي.

الاسلام مثلاً في الناحية الانتشارية يعاني حالة مريعة من الضمور

والخفوت . لا جهود صادقة لتوضيحه لأراضي خصبة كأفريقيا، آسيا أمريكا الجنوبية .

ولعل انتشار الاسلام بألمانيا، فرنسا، الولايات المتحدة دليل على غياب المنهجية .

يبقى المنهج وحده هو الذي يقدم نفسه هناك أو الظروف كتاب رحلة إلى مكة لمراد هوفمان.

على الجانب السياسي هناك انتكاسة سياسية بالبلدان الاسلامية .

الجانب الاقتصادي يوجد دول غنية (غير متقدمة) !

يعاني المسلمون أيضًا على المستوى الديني ما يسمّى بظاهرة (انكماش) القرآن، اختزاله في آيات معينة.

لكن ما العلة. .علة هذا الانهيار المتماسك للفكر الاسلامي التطبيقي؟

الجمود .

هذه الكلمة هي المنحدر المرير الذي أسهب في نزع الاسلام من المجتمع العالمي.

أشار إليه العديد من مفكرينا الذين لا يُقرأون بالطبع في عالمنا الاسلامي . حتى أننا نكاد لا نشعر بأثرهم . .

استلهم الاسلام حيويته في مطلع الحضارة الاسلامية بترجمة نهمة استمرت أربعة قرون لكل الأمم وثنية كانت أو دينية .

لكن البتر الذي عاناه الاسلام كان شديد الوضوح شديد الألم في سقوط أسرة عثمان .

حان الوقت لنفهم أن الدولة العثمانية لم تمت بإعلان أتاتورك وإنما كل ما قام به الرجل هو استكمال لعمليات إحياء قوية مورست قبله دون جدوى . . حارب أتاتورك الثقافة الاسلامية لا الاسلام . .

هُزم المسلمون عبر التاريخ حين أيقنوا بانتهاء المعركة . . العلماء المسلمون في نهاية خلافتهم رضوا بما لديهم فرغم أن كتب فولتير كانت مطابقة لما يقوم عليه الاسلام من إعمال العقل إلا أنها لم تنجح ـ دولة عثمان ـ في أن تنجب فولتير بل سارعت إلى رفضه وتباطأت في ترجمة أعماله وارتابت من الثورة الفرنسية بالكامل .

الجمود إذن هو كلمة السر .

هناك بالطبع أسباب أخرى مثل عسكرة الدول الإسلامية مثل الفساد السياسي لكن الجمود لم يتسبب في توقف أبهى حضارة علمية عرفها العالم وفقط وإنما استباح كل ما كان لدينا . . لدرجة أن البعض هاجم كتاب تاريخ ضائع لمايكل مورجان لأنه يعرض التاريخ، تاريخ الحضارة الاسلامية ـ بسرد حياة زنادقة أو مهمّشين !

إن حضارة توصلت للجداول الفلكية عند كوبر نيك ولاختراع علوم رياضية علم المثلثات، التفاضل والتكامل، الجبر، ما كان لها أبدًا أن تموت .

لكن فتّش عن الجمود .

كتاب فجر العلم الحديث في الجزء الخاص عن الحضارة الاسلامية يقول تُرى لماذا سقطت هذه الحضارة التي ما كان لها أن تسقط أبدًا

إن أول أداة نحتت صورة بغيضة لإسلامنا المعاصر كانت أداة الجمود .

يقول م .هوفمان: يعتقد غالبية المسلمين أن تخلفهم المادي اليوم ما هو إلا نتيجة للاستعمار الأوربي الذي تعرضت له بلادهم إبان فترة الامبريالية الغربية ولكنني أرى العكس .

فلقد تعرض العالم الاسلامي للاستعمار بسبب حالة الانحطاط التي كان قد وصل إليها من جراء اتجاه التقليد الذي استشرى في العلوم والفكر

الخطوة الثالثة

"ما بعد العلمانية"

لسنا في حاجة لاستعادة الماضي أو عصر الأنبياء .
لأن الاستعادة مبطنة بهروب ما ، اندفاع مرير ناحية تاريخ مجيد يهيأ لنا شهوة الاستبدال، فنستبدل حاضرنا بماضينا ، غير ملتفتين إلى أننا بهذه الصورة لن نرث غير موتنا ، فنائنا في حياة فنت .
كما أن نظم الأنبياء كانت خاضعة للعقل، لحشد الناس حسب المنطق فمثلاً . .
كان خروج النبي موسى منطقيًا وكانت ثورة السيد المسيح منطقية وكان النبي محمد منطقيًا .
أي أن هذه النظم منسجمة مع العقل لا تقع خارجه .
ربما استخدم الانبياء أساليب خارج العقل (كنوع من بيان التأييد من قوى عُليا) لكن ما أرادوا أن يدللوا عليه وما ثاروا من أجله كان منطقيًا . .
كان منطقيًا ألا نسجد لأحجار
أو أن نستعبد طائفة
أو أن نتحدث باسم الله ونخونه .
وبالتالي هذه النظم مرنة مرونة إدراكنا للواقع .
وما دامت اعتمدت في بنيتها على العقل وعلى المنطق فلا صدام إذن بينهما وبين عصرنا الذي يدين للعقل كمخلِص أو طريق شديد البهاء لخلاصنا .

إذن استبعاد عصر الانبياء هو استبعاد وهمي أي ليس إقصاء فنحن نلجأ إلى ما لجئوا إليه . . إلى العقل .

نحن نتشارك الأنبياء ، نضفر معهم محنتنا وخلاصنا وآمالنا .

إننا لسنا في حاجة لأزمنة نبوية جديدة، لسنا في حاجة لأن نردد كلمات انبثقت من طينة واقع مر عليه مئات العقود .

لا نريد أن نُحيي الموتى لكي ينهضوا بمهامنا ، إننا عندها ندفن أنفسنا بجوارهم . . علينا فقط فهم النبوة ، علينا دس الأهداف الكبرى لهذه الظاهرة الفريدة في حياة البشرية ـ ظاهرة النبوة ـ في كرنفال حضارتنا القائمة .

يجب مثلاً أن نلتفت إلى نقطة لم تعتمد على العقل وحده . . إنها فكرة الإله وحسب كانط عقولنا لا تكفي لأن نعي وجود الله، فالعقل مترجم لعالمنا المادي، الجزئيات، عقلنا لا يفهم لغة الكليات، المثل، القيم، حكمة الأشياء ومرادها .

كما أن العقل يمهّد لنا معنًا محتملاً للعدم، والعدم أي اللاشيء ، وإذا سألنا ببساطة لا شيء بالنسبة لماذا ؟

سنجد أنفسنا نجيب بالنسبة لعقولنا ، لإدراك عقولنا . . هنا تتضح لنا علاقة بين اللاشيء والعقل، العدم والعقل .

ولو غصنا أعمق قليلاً سنجد أن هذا العالم ، هذا اللاشيء يحتمل أن يكون وجود فوق الوجود .

أو شيء فوق الأشياء وهو ما سمته الفلسفة بالفعل (الترانسندنس) أو العلو .

وهو يبقى احتمال قائم ، احتمال عقلي حيَّر الفلاسفة إذ أن أول ما يرتبط بهذه الفرضية هي أنها فوق العقل .

كيف يمكننا الاقتراب إذن؟

يروي ياسبرز أن الفلاسفة الذين عاصروا الوجودية أو الفلسفة الحديثة عامة حاولوا السكوت أو تجاهل (العلو) رغم أنه في صميم الفلسفة . .

في كتاب فلسفة العلو يخبرنا شتروفة أن ياسبرز تناول العلو كمرادف لله .

لكن النقطة التي تكلم فيها العقل بقوة عند تناول العلو هي أنه لم يتكلم!

وهذا جيد . . فصمته أو تجاهله منحنا برهانًا عقليًا على فكرة الوحي

فصمته يعني أن ثمة ضرورة لوجود طريق آخر غيره، ولا يعني الصمت هنا ولا يمكن أن يعني أن العلو بعض من تخيلنا . . فالخيال نفسه نتاج عقلي . . يقول شتروفة عند حديثه عن العلو (علينا ألا نصفه بكونه مشكلة من المشكلات الفلسفية وإنما المشكلة) .

لهذه الدرجة يستشعر شتروفة وقع العلو وحضوره القوي بحياتنا . . كيف إذن يمكننا أن نكتفي بالصمت أو التجاهل لا أمام مشكلة من مشكلات الفلسفة وإنما المشكلة.

العقل إذن يرفض الحديث عن الله، في حين أن حجر الزاوية عند الأنبياء الايمان بالله . . فالله ركيزة حتمية لسلامنا الشخصي.

الجميل إذن أن الله لروعة حضوره موجود خارج الدين، موجود بقوة، لكن كسؤال لا كإجابة.

فهو الحديث الهامس في الفلسفة

وهو نواة كل العلوم. .

مَن يدير هذا الكون ، كيف وُجدت الأشياء

ما سر كل ما يحدث؟

أليست هذه أسئلتنا العميقة المتخفية وراء أردية كل علومنا ؟

ثم إن قيمة مثل قيمة الجمال تعني أن ثمة إبداعًا . .

الله يمنحنا حالة من حالات السلام الإبداعي، الفرحة الوجودية . . فوجودنا مرتبط بمنشيء متسامي، ثمة عناية مُلهمة إذن.

ثمة حكمة من وراء إحضارنا . . وثمة فردية ثمينة تجتاحنا ، أعدت فينا ولنا كما أنها تمنحنا فرصة في الذوبان الحيوي في الوجود ، فالوجود عندها ليس لعبة ولا مزيف، إنه رغبة إلهية ، يسميه المسلمون اختبار.

عندها لن نثق كثيرًا في كلمة (فوضى) أو (عبث).

عندها لن نقبل تلك الأفكار التي تجعل منا لقطاء، ذرة غبار بعالم يبعد عنا أميال ضوئية ويحفل حولنا بطاقة ماردة وحركة دءوبة.

هنا لا يقف الدين نقيضًا للعقل فالدين كما قال مصطفى محمود يتحدث عن كليات، عن حكمة وعلة غائية وإله منزه مفعم بالكمال الكلي.
الأمر الأكثر أهمية من وراء هذه الكلمات أن عالمنا بات لا يحتاج لأنبياء، يحتاج لله مباشرة.
الترجمة الفلسفية لرياضيات الكون الجاف وفيزيائه المجوّفة.
الدين هنا يمنحنا نافذة، بابًا موارًبا لعالم فوق الفيزياء، فوق إدراكنا.
لخلاص تام منطقي في البرهنة على أدائه لا على ذاته.
خلاصنا المنطقي والواضح والمفرح . . (الله).
السعادة بالنسبة لي هي ثقتي في أن الله هناك، موجود بما يفوق كيفية الوجود ذاته، موجود للدرجة التي تمنحك حتى مراقبته في أدق أدق حركات الأشياء، يرى العلماء ـ بعضهم ـ أن الوجود حي . . المادة حيَّة . .
فيثاغورث هو أول مَن أبدع هذه الرؤية.
الكون ينساب في سلوك فائق الروعة.
يتخطّى ما نظنه من سكون المادة ، الكون رغم كونه جماد إلا أنه جماد غير مصمت ، إنه منخرط في أداء عذب ثري، هذه العذوبة وهذا الثراء وهذه الحيوية أغرت سبينوزا للحديث عن وحدة وجود، الكون يعلن حضور مباشر لله.

السعادة هي ثقتي في أن الله تحدث عني، تحدث إليَّ.
أرسل لي مخطوطات ، بوصلة، خرائط . . أمدني بملاحة برية وزمنية إليه
الله زرع فيَّ مخطوطته الفريدة . . أيقونة وجودي . . العقل.
والعقل هو مبعث سعادتنا، هو قلب راحتنا .
العقل لذيذ حتى في أخطائه . . كانت كلمات أرسطو عن الطبيعة خاطئة
كانت عيوننا أيام الهندسة الإقليدية عمياء، كانت تيمات الديانة المصرية
القديمة معقدة ومزدحمة بآلهة عديدة لكن مَن قال أن أرسطو لم يكن ألذ عقل
في الدنيا .
ومَن قال أن إقليدس ليس سوى أبو الهندسة، المهندس الأول، ومَن لا يرى أن
العقيدة المصرية القديمة مثيرة لأقصى حَد وجذابة لتساؤلات لا تنتهي.
السعادة إذن لا أن تُخلي مكانًا لله في قلبك و لكن أن تكتشف أن قلبك كله
لله . . حياتك كلها .

آدم

وُلد الانسان هشًّا منزعجًا وحاول جادًا أن يستعيد سلامه الرائع حين كان وحيدًا في رحم بلا مفاجآت فآوى للكهوف ونسج بها طفولته القصيرة جدًا، وهناك حاول من جديد استعادة ما حدث، ولا نعرف هل نجح في فَهم خطة الله أم لا.

لكنه ترك لنا آلهة عديدة فوق جُدُر طفولته تلك. كان خائفًا لأبعد حد وحشيًّا جبانًا، ولكنه لم يكن أبدًا مستسلمًا . .

ويخبرنا العهد القديم بتدخل الله لينزع عنا خوفنا وإلحادنا فأرسل الأنبياءوالكتب وبدأ تاريخنا يُكتب على جدران المعابد ويُحكى بنبوءات خلاصية حالمة.

وربما . . ربما انتابته ولو لحظة واحدة وجد فيها متسعًا لبسمة وحيدة يرأف بها على نفسه ويقلِبها في هدأة ليله.

والانسان منذ ميلادِه الأول وصرخته الأولى يحاول جادًا أن يبتسم وحين اكتشف السعادة أقام لها أعيادًا واحتفالات كي يوثق فرحه للأبد.

وأجمل ما قدمه الانسان خوفه ورفضه ويقينه وابتسِامته . . أي وجوده وحين نسأل لما لم ينقرض إنساننا ؟

لما نحيا للآن ؟

لا أجد سوى لأننا أحببنا الحياة وأخلصنا في حبها .

الحب

يجسد لنا المسيح هذه الروعة في مقولة الخد الأيسر فحين تتأمل هذه المقولة لا تجد بُد من التساؤل : متى ندير وجوهنا ؟متى نمنح الآخر خدنا الأيسر سوى إن كان هذا الآخر أخ أو أب أو أم .

إنها فكرة العائلة تلك التي حاول يسوع أن يقذف بنا فيها .

وفي القرآن يعرض لنا النص ببلاغة جميلة فكرة الخد الأيسر (اعدلوا هو أقرب للتقوى) يحثنا هنا على الاقتراب فهذا كل ما يمكننا أن نتملكه . . إننا نقترب وحسب، لكننا لا نصل أبدًا . التقوى إذن . ضمنيًا . تحتاج ما هو أكثر من العدل .

ربما يلمح النص إلى الرحمة أو العفو أو مُثُل عديدة قد تصل في عليائها إلى الخد الأيسر .

ومن المستحيل أن ندعي أن الانسان يمكن فهمه منذ عاصر الأرض وتحول لكائن تتراكم فيه التجارب ، من المستحيل .

فالانسان عاش جاهلاً حينًا إلهيًا حينًا . . وحيداً أ مرة، جماعةً مرة تحدث لغات لا حد لها وفسَّر الحياة بصيغ لا تحتمل الحفريات الإلمام بها .

وكل ما يجمعنا به وكل ما يسمح لنا بالحديث عن جدنا الأول (آدم نياندرتال) هي ثقتنا الغريبة في أنه حين بكى بكى كما نبكي وحين شعر بالوحشة امتلأ بما نمتلىء به .

وحين اكتئب تناول العقاقير نفسها فاستباح لنفسه أن يغني ويرقص ويحب . تمامًا مثلما نفعل . .

ولأنه من المستحيل أن نتيقن ما ندعيه حين ننشغل بآلامنا وأوهامنا ومقولاتنا الكبرى . . لأن اليقين في التاريخ وهم، وفي طفولتنا البعيدة وهم؛ كان علينا أن نستعيد آدم لا لنتيقنه وإنما لنحاول أن نفهم أنفسنا ولو من بعيد .

ثنائية الحياة/الموت

في يناير دار حوار بيني وبين إحدى الصديقات عن الرواية ، نسيت كل ما دار به إلا عبارة قالتها في مفردات واضحة (ولا تنس أبدًا أن أصعب الأمور هي كيف تميت البطل ، موت شخصية في الأدب أمر بالغ الصعوبة) .

لفتت هذه العبارة ذهني (وإلى الآن تلفت) كيف أن الموت لم يكن حلاً سهلاً للحفاظ على هيبة الطبيعة ، كيف كان إبداعًا وخلقًا فريدًا للتعبير عن روعة الحياة التي منحها الموت أفضل دلالات الوجود الخاطف لنندفع بلا أدنى تردد لاقتناص أثر ما لنا .

بجانب أن الموت كان ولايزال أبسط النهايات وأشدها غموضًا رغم ذلك، يمكن إذن أن نقبل أن موتنا أعظم موت روائي وأعمق فوتوغرافيا تلتقط لنا أثرًا .

ساراماجو كان رائعًا في انقطاعات الموت حين جاءت روايته مديحًا مؤلمًا . . (كل ما قام به الرجل هو أنه اختبر عالمنا بدون موت) .

البعض لم يفهم الأمور بطريقة جيدة فتصور أن الموت ما هو سوى حياة مستحيلة أو النقطة التي تستحيل عندها الحياة، بعض الأديان تعثرت في الموت مثل البوذية والمسيحية لكن الدعامة التي أستند إليها هنا تجعل من ثنائية الحياة/الموت ثنائية مزيفة . . دعامة الأثر .

ثنائية الله/الانسان

تخيل مثلاً لو أننا خلقنا بشرًا . . امتلكنا المعرفة الكافية للخلق . . هل عندها يطيب لنا إبعاد الله؟

أراها من زاروية أخرى تمامًا . . أننا يمكن . يا له من أمر مؤلم . أن نُصنَع .

إننا إذن لا نفقد الله وإنما نصارع أنفسنا . .

هذا الزخم الذي يدفعنا اليوم لأن نعلن حُرمة دم الانسان ، هذا التقديس الذي نقف له متواضعين لبنائنا سيكون أمرًا مبتذلاً . . إننا من يخسر إذن.

سينتهي . . هذا التفرد سيتلاشى فنحن عندها منتج ليس إلا .

العقل ، التفرد، الشخصية، الكائن التاريخي، الإبداع . . كل شيء سيكون قابلاً للصنع.

الأديان تملا هذه الهوة . . فالله خارج الزمن، خارج المكان . . الله لا يمكن صنعه، هنا تحديدًا نفهم التجاوز . . نفهم فكرة ارسطو عن الإله الذي يُحرك ولا يتحرك . . إنه يحركنا نحوه أو بأسلوب أدق . . نحن نستشعر حاجة في التحرك نحوه.

لكننا دومًا نقع في فخ ثنائية مزيفة الله/ الانسان . .

تختمر في عقلية البعض فكرة أن يومًا ما سنخلق أكوانًا

فنحن نفعل ما فعله الله ومازلنا نعمل على إتمام الأمر برمته . .
بالطبع نحن فعلنا بعض ما فعله الله لكن بأية طريقة؟
لنعطي مثالاً هنا . .
الشمس تدار كفرن هيدروجيني ضخم، إنها أطنان من القنابل الهيدروجينية التي يفرقعها الله في الفضاء ونحن تعلمنا هذه الفرقعة . . اليابان تحيي ذكرى هيروشيما ونجزاكي، والقنبلة الذرية ما هي إلا مقدمة لمحاكاة الله والوصول للقنبلة الهيدروجينية . .
ماذا نتج عن نفس الفعل؟
فرن الشمس، فرن هيروشيما . .
الشمس تهب الحياة لأجمل تنوع حيوي يمكننا تتبعه، كل ما على الأرض يتنفس هذه الفرقعة . . ميتوكوندريا الأوراق الخضراء، مسطحات البحار والمحيطات تتطاير نحوها وبها ، سحب تندفع ، أرض تفيض توهجًا ، حيوانات ترعى، إنسان يجلس بحافة عمر قصير جدًا ويبتسم.
هل لو فتشنا وأخلصنا في تفتيشنا سنجد ابتسامة واحدة جاءت من وراء مشهد هيروشما ونجزاكي . . ورقة خضراء واحدة . . أي جمال!
إنه الدمار وفقط.

حتى الدمار . إذا ما افترضنا ذلك . الذي يمارسه الله في الكون يبدو على الأقل مبهرًا، فالنجوم حين تموت تمنحنا أجمل لقطة وداعية . .

في حين لو فتشنا كل حروبنا التي قدناها لأسباب عظيمة جديرة بالاحترام حروب جنوب إفريقيا، وحروب الولايات المتحدة الأهلية . . نقتل أنفسنا بسبب لون بشرة أو بئر بترول أسود أو بلا سبب . . حاربنا بلا سبب طيلة عمرنا الممتد لآلاف السنين.

لو فتشنا كل كل حروبنا لن نجد لقطة واحدة تدعو للفخر . . لن نجد ابتسامة واحدة. .نحن إذن نتحدث عن ثنائية لا وجود لها . .ثنائية الله/ الانسان ما هي سوى تخيل مريض . . ثنائية مزيفة.

ثنائية الأنبياء/العالم

من جهة يجد الدينيون الباب موارباً لعالم ينتظر دخول مخلص جديد، نبي جديد، حاكم جديد للعالم .

ومن الجهة الأخرى ترفض منجزات حضارتنا المادية دخول أي أحد أو استعادة أي أحد، ترفض أيضًا أن نعيش على أنقاض أجيال كانت أقل وعيًا وعلمًا ورفاهية وإنتاجًا وإبداعًا منا .

هذه هي مشكلتنا إذن . . ثنائية الأنبياء/العالم.

الأنبياء . . إن اختلفنا عن كيف كان العالم حين حضروا فيه بقوة لا يمكن أبدًا أن نتجاهل وقع آرائهم في أجيال كاملة خلّفت لنا ثراءً وجودًا . . لقد غيّروا العالم.

لم يكن عمل الأنبياء إضفاء قداسة على فكرة الله وحسب وإنما اتجهوا للحديث عن أثره في هذا العالم.

أي أنهم رأوا أن عالمنا جميل ومن ثم لم يتحرجوا حين نعتوا الله بالخالق والموجد .

تحكي التوراة مثلاً عن عدن رائعة أعدها الله لآدم وكانت عدن مكان أرضي حسب التوراة أي عالمنا الآن . . أي أن التوراة تقترح علينا فكرة اليوتوبيا الممكنة، الجنة الأرضية.

أتلانتس الغارقة التي تتهيأ لمن يسكنها ويعيد إحيائها .
لم تكن غاية الأنبياء أيضًا إجهاض عالم قائم وحسب ، لم يتوقفوا عند هدم تصوراتنا وقتها وإنما أبدعوا لنا عالمًا جديدًا أخلاقيًا .
ربما توقف البعض فيما بعد من أتباع الديانات عند إجهاض العالم القائم البعض بالفعل يكتفي بأن يصف لنا خروج بوذا مثلاً أو خروج النبي موسى أو كيف رفض المسيح العالم أو كيف حارب النبي محمد .
البعض هذا توقف وصارت الحياة ألم أو عبودية أو ملعونة أو سجن أو كبوة و علينا أن ننهض ونتخلص منها ، حتى أن البعض يصور لنا انتصار أنبيائهم على أنه انتصار على العالم.
لكن هل الأنبياء كانوا فعلاً بهذه الصورة؟
لا . .
أدخلَ الأنبياء لعالمنا القديم فكرة (الإيمان) . . جذر كلمة إيمان هي (أَمِنَ) أي أن الإيمان يُلقي إلينا بسلام لا محدود . . فيض من النقاء الذاتي . .
لو فهمنا أن الإيمان هو أولاً وأخيرًا (نحن) في أشد حالات النقاء سندعي أن الكون كله يعيش حالة من حالات الإيمان فيعبر عن ذاته بجمال لا حد له .
هذا الإيمان الذي طرحه لنا الأنبياء يستند على فكرة وجود الله ، أن نتيقن من وجود الله .

هذا كان قديمًا . . ماذا عن الإيمان في عالمنا الآن؟

الدين ميت في عالمنا .

دفين عقول نخبة سلفية مريضة أو مهووسة بحياة القبو والتحرك عبر الماضي ، حافلة بالثنائيات ومن ثم الإقصاء والكراهية . . وعلى الجانب الآخر يكاد يكون الدين زائد عن الحاجة في بلداننا العلمانية ، الدين بالنسبة لآبائنا العلمانيين تجربة سخيفة بل يقف كثير منا عند وضع الأنبياء في مقابل العالم . . الروح في مقابل المادة . . وهي ثنائية مزيفة تمت حين ألحقت الأديان بالأساطير وجُردت المادة من عمقها الغائي وثرائها الروحي.

ثنائية الدين/الفلسفة

الدين هو أقدم وثيقة أخلاقية .

حين دوَّن حمورابي شريعته التزم بالتذكير بأن الإله شمش هو مَن منحنا تلك القوانين.

كانت قاسية إلا أنها كانت عظيمة ، لكن هذا لا يهم. .

ما يهمنا هو أن القوانين الأولى التي حاولت إرساء دعائم يوتوبيا أرضية كانت وثيقة دينية.

هناك أمر غاية في الوضوح في العهد القديم . .

فالأسفار التاريخية تُهين الشعب. والتاريخ يخبرنا بما قاموا به من غباوة وكسل عقلي عجيب في تصرفات يربعام وسليمان مثلاً ، في حين تتخذ أسفار الأمثال والجامعة والمزامير منحًا آخر ، فتذخر بحكمة عميقة وصدق وتدريبات روحية تفيض بالحياة حتى وقتنا الآن . . ماذا أريد أن أقول؟

الأسفار التاريخية حاولت أن تدون ما كنا عليه بالفعل, أما أسفار الحكمة فأعلنت لنا ما كان يجب أن نكون عليه.

هنا أيضًا نجد مخطوطة الأخلاق القديمة جدًا ما هي سوى وثيقة دينية.

خطوة أخرى .

كيف بدت الفلسفة خارج الدين؟

المحاولات التي قاربت فيها الفلسفة الدين (حاولت أن تحل محله) عند الحديث عن حرية الانسان ومكانته من الوجود نعمت بفضيلة التطرف.

حين حاولت مدح الانسان جعلته إلهًا مكتئبًا.

وحين حاولت هجاءه جعلته زائد عن الحاجة، وحين انكبت على مدح مستقبله كونه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يغير مستقبله بترت عنه ماضيه.

وجعلت في لجوئه للمستقبل حالة أشبه بالهروب من الماضي، فبدت الفلسفة عاقر رغم نُبل غايتها.

تحدث شوبنهور عن وجودنا بتشاؤمية مريرة وحين استجاب لفكرة التجاوز بعيدًا عن الدين تحدث عن إرادة ما، ونحن تمثُّل لهذه الإرادة وكان كلامه جميل، لكنه لم يجد مهربًا في المصارحة بكونها عمياء

إرادة عمياء.

الأمر الآخر يمكننا أن نلاحظ بسهولة أن أهم تيارين ظهرا في الفلسفة القديمة مدرسة أبيكور والرواقية لم ينجحا في حل مشكلاتنا الأخلاقية ولا نجحت الفلسفات الحديثة في تعريف واضح لـ الخير أو في إجابة عن أسئلتنا العميقة عن فكرة الشر أو وجود الانسان وقيمته.

ونحن لا نستطيع أن نستند للدين وحده في رحلتنا . . ولا للفلسفة وحدها الدين يرتبط بالأطر التي نتحرك فيها لفهم العالم أما الفلسفة فهي فهمنا ذاته للعالم أو محاولة فهمنا . . نحتاج أيضًا للعلم ، نحتاج أيضًا للقيم ، . . إننا بعيدًا عن فخ الثنائيات سننعم بعالم لا حد لوصفه ، لا حد لفتنته.

الطريق

لا نعرف الحقيقة لكننا نحاول أن نباغت أوهامنا باستشراف ينابيعها .
وكل خلافاتنا حول كلمة ينبوع الحقيقة . . هل تنبع منا، هل نستضيف في أعمق أعمق ما فينا ما يجعل هذا العالم منسجمًا مع أحلامنا وطموحاتنا أم هو ينبوع خارج التاريخ، خارج وجودنا . . أي ذات وجود منفصل؟
لكن ما يمكننا أن نتفق عليه هو أننا أكلنا الحقيقة، أكلنا تفاحة المعرفة ومن البديهي أنها كانت أجمل وأطعم تفاحة.
عرفنا أن هذا الكون جميل فالعالم الذي نراه بعيوننا عالم حي رغم أن كل ما فيه لا يتوقف عن الموت .
الموت مجرد طور أو مرحلة من مراحل حياتنا .
وفي هذه الحياة نفتش عن طريق . . عن نفس مطمئنة . . عن خلاص.
إننا كما قال أرسطو نتحرك نحو الله، لكن أين الله حقًا ؟
هذه هي اللحظة التي علينا أن نقف عندها . .
وصف نجيب محفوظ حالتنا هذه في رواية الطريق، نقرأ كلمات مريرة عن صابر بطل الرواية :
" هو عرف اسم الله ولكنه لم يشغل باله قط ولم تشده إلى الدين علاقة تذكر . .ولا شهد النبي دانيال (اسم شارع بالأسكندرية)

ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش في عصر ما قبل الدين ".

هنا علينا أن نلتفت إلى واقعية الدين، أننا في هذا العالم نمضي كتفًا بكتف لحظة بلحظة مع رقيب محب منظم منحنا ما لا يمكن لنا رفضه . . حريتنا في الإعلان عن أنفسنا .

إن أهم ما قام به الأنبياء أنهم علمونا أننا من نكتب تاريخ أنفسنا، وأن الرفاهية الحقة لا في خروج آمن من التاريخ وإنما في خلق هذا التاريخ .

ولم يكن الأنبياء ماديين في حياتهم شديدة الواقعية تلك ولا كانوا مثاليين ولا رهبان ولا انطوائيين . . كانوا صادقين مع أنفسهم يستندون لإله حقيقي في كل لحة من حياتهم .

يسمي سيد قطب هذه الواقعية الدينية بـ (الواقعية المثالية) . .

يقول عن واقعية الإسلام :

" إنه يتعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود الحقيقي المستيقن والأثر الواقعي الإيجابي

يتعامل مع الحقيقة الإلهية متمثلة في آثارها الإيجابية وفاعليتها الواقعية

يتعامل مع الحقيقة الكونية متمثلة في مشاهدها المحسوسة المؤثرة والمتأثرة . .

ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية متمثلة في الأناسي كما هم في عالم الواقع .

ثم إن التصميم الذي يصنعه للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك لأنه قابل للتحقيق الواقعي في الحياة الإنسانية . .

ولكنها في الوقت ذاته واقعية مثالية أو مثالية واقعية لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج تملك البشرية أن تصعد إليه"

إن رحلتنا إذن مع الدين تشبه رحلة الفراشة التي تولي وجهها ناحية الضوء أنّى تراه لتنعم بيوتوبيا عميقة بينة عمق الضوء وبيانه . . لكننا لا نصطدم بالضوء مثلها وإنما نمتليء به ويمنحنا احتمالات أكثر خصوبة وأكثر بهاءًا لعالمنا .

الواقعية التي تحدث عنها سيد قطب تم تطبيقها بالفعل في حضارة المسلمين ولولا غرور المسلمين وجمودهم أمام التاريخ لغيروا العالم لنا مرة أخرى وللآن ينعم المسلمون بتيار مرتد للماضي مولع بالجمود سعيد بسقوط القسطنطينية ولا يلتفت إلى أن سقوط الأندلس كان معناه سقوط العالم الجديد (الأمريكيتين) والخروج من الواقعية التاريخية.

دعنا نأخذ خطوة أخرى تجاه الإسلام . .

حسب الاسلام الله لا يعاملنا كأطفال . .

إنه يعاملنا على أساس (التكليف) . نحن مكلَّفون بفهم العالم، تسيّده. مكلَّفون بأن نبدع حسب عقولنا ما هو جدير بنا .

إنه من السهل أن نكتشف أن حضارتنا المادية قامت برغبة طيبة بتمجيد أنفسنا والتمركز حول الأنا .

الأديان قامت أيضًا على ذلك فجعلت من أبينا يكلم خالقه بل ويعصيه.

لكن سرعان ما انحازت حضارتنا للمادة . . للوجود الأرضي لنا ، وسرعان ما انحازت الأديان لتقديس التاريخ الديني ، الوجود الماضوي بجانب سيطرة فكرة (الله) بصورة ما تجعل منه على علاقة وثيقة ضرورية بنا .

فاليهود يتحدثون عن عهد (أرضي)، والمسيحية تتحدث عن إله (أرضي) والاسلاميون يتحدثون عن تمكين (أرضي) .

إننا بصورة ما استحضرنا الله فينا (كأصوليين) لم نكتف باستحضاره وإنما دفناه فينا .

فبموت طموحاتنا ندعي أن الله فشل أو أن العالم ضد الله أو أنه شر أو فساد أو فتن كقطع الليل.

هل علينا الآن فعلاً أن ندفن الدين للأبد ونضع لافتة فوقه مكتوب عليها . . تجربة سخيفة أو (هناك يعيشون فقط بعد موتهم) أو ما قبل العقل.

لا أظن.

فمن ناحية برع الدينيون في إبعاد الدين عن مجال العلم بمعنى إيجاد مشكلات خاصة به يعجز العلم عن فهمها أو طرحها لتجاربه. .

الروح، الموت، علة الحياة، الخلق، الوحي، حكمة الوجود.
ومن ناحية مازال العلم الذي تتشبث به مازال خادمًا بطيئًا مستجدًا ، مازال خادمًا، أما الدين فكان خلاصًا ذهنيًا سمح لكثيرين أن يقدموا أروع ما يمكن تقديمه.
ما السر إذن؟
السر هو الله . . القصة كلها . . الوجود كله.
هكذا توسّد إبراهيم يقينه بالتعرف على الله . . التماس وجوده.
تحكي الأديان السماوية عن ابن إبراهيم الذي اختاره الرب قربانًا . . ذبيحة.
نسخر حقيقة من تلك القصة.
كم كان إله إبراهيم قاسيًا متعجرفًا ليطلب مثل هذا الطلب السخيف.
إننا نتعامل مع هذا المشهد وكأن الابن ذُبح فعلاً.
وكأن إله ابراهيم ينتظر أن يفطر قلب خليله.
إن خروج إبراهيم يمنحنا صورة من صور التسليم، الثقة الكاملة في أن يودع ابنه الذي جاء بعد كبر بين يدي الله .
لماذا لا نسأل كم كان مقدار ايمان ابراهيم وقتها ؟
القرآن يسميه (أمّة) . . جيل كامل من الايمان والمحبة لربه، لم يفتح فمه، لم ينسحب. .إنه استجاب.

هنا نفهم أن ما كان يحرك إبراهيم يقين عجيب لا نفهمه ولا نريد للأسف أن نفهمه .

لكن الدين وحده لا يكفي . .

سيعترض كثيرون لكن العبارة واضحة الدين لا يكفي ليس الله لا يكفي ، فالله خارج الدين أيضًا .

في حين نجد الاسلام نجح في تطبيق رائع لهذه النظرة ،فكان كما قال «سيد قطب» واقعية مثالية أو المثالية الممكنة .

فالإسلام اكتفى بكونه إطار . . خطوط عريضة .

وأريد أن أقول لم يكن التوحيد سهلاً، لكن حين تحدث القرآن في كل آية عن الله اكتشفنا أن التوحيد سهل بل يمكن الوصول إليه بدون وحي (يحيى بن يقظان لابن طفيل) .

التوحيد مثلاً أيام شعب اسرائيل لم يكن فكرة خلاصية أو طريق لنفس مطمئنة حتى لو أدى للتحرر . . حريتهم من عبودية فرعون.

فسرعان ما نجدهم وثنيين حين يذهب موسى ليكلم ربه.

تخيل !

هم يعرفون أين موسى ورغم ذلك اطمئنوا لوثنيتهم.

أيضًا لننظر لهذا العالم القديم، كان العالم كله أوثان.

كنا جميعًا نسجد لأحجار وأخشاب.

وظلت جرثومة الوثنية عند اليهود في صورة (ترافيم) وهي أصنام صغيرة تعبد في المنازل.

ويمكن أن نتخيل كم كان العالم مناضلاً مخلصًا لوثنيته في مشاهد موت قديسي المسيحية الأوائل . . يحكي القرآن أيضًا حادثة الأخدود . .

وفيما نجد أن سفر كامل في العهد القديم سفر (استير) يخلو من كلمة (الله) نلاحظ أن القرآن لا يتحدث في كل آية من آياته سوى عن الله، القرآن هنا حالة من حالات النضج، اللبنة الأخيرة في جدارية الوحي، فيبدو لنا التاريخ القديم أو حكايات الأنبياء مجرد أداة للإشارة لمحبة الله لنا وكيف ابتعث في كل أمة رسول يتحدث عنه.

نجد أيضًا النبي محمد مهمَّشًا في القرآن (سورة عبس مثال).

هنا نفهم كم كان التوحيد الذي يبدو سهلاً ومنطقيًا لنا الآن . . كم كان صعبًا ومرفوضًا لنا قديمًا.

نفهم أيضًا أن عبارة (الدين لا يكفي) ليست تقليلاً من مكانة الدين في حياتنا وإنما تلميح إلى أن الدين أدَّى مهمته فصار مستغربًا مثلاً مقولة (الله غير موجود) . . صارت بلا معنى وشاذة.

الوثنية في عالمنا الآن إن لم تكن هامشية بطريقة ملحوظة فهي . وهذا يكفي . غير عقلية.

الإيمان بالعلة الغائية . . العدم المزيف . . العوالم الموازية . . الوجود الفوق الوجود . . عالم ما بعد الزمن أو خارج الزمن . . كل ذلك أصبح محتملاً ومنطقيًا .

التفسير الرائع لـ مصطفى محمود عن الروح تفسير عقلي بحت.

الدين إذن (الدين الإسلامي بالنسبة لي) هو الطريق .

نعود من جديد لعبارة (ولكنه لا يكفي) . .

انسحب العالم المسيحي وماتت الحضارة الاسلامية بسبب إهمال العلم.

وستموت حضارتنا الغربية بسبب انسحاب الأخلاق. .إنني إذن أعود للبداية . . الدين، العلم، الأخلاق، الفلسفة.

لكن دعنا نبدأ من الدين لنجيب على. .كيف علينا أن نحترم العلم عندنا بالشرق كما نحترم الدين؟

من أجمل حكايات القرآن هذه القصة التي تجمع النبي موسى مع الخَضِر.

يشبه الخضر شخصيات سفرأعمال الرسل بالعهد الجديد، أولئك الرسل الذين امتلأوا بالروح القدس، قصته مثال جيد لنعرف كيف ترك الدين الباب مواربًا للعقل. .بل كيف قدَّم العقل.

ظهر الخضر كشخصية ربانية، يتنبأ بالغيب، يتخطى حاجز الزمن، فغلام يلعب مثلاً أو سفينة مبحرة لمساكين أو قرية غبية، هم قاتل ومساكين يجب

خرق سفينتهم وقرية تستحق بناء جدار فيها دون أجر !
إنه فرد أقرب إلى الله . . شخص أعمق من النبي موسى، لم يفهم النبي موسى هذا القرب أو العمق في التعامل مع الله وموجوداته . .لم يفهم.
كان على الخضر أن يشرح، يعلم موسى ما لا ولن يعلم . .
لكن ما قيمة هذه القصة هنا . .
قيمتها هذا السؤال . . لما إذن فضَّل الله، اختار الله، اصطفى الله النبي موسى ليقود شعبه، ليقف أمام فرعون، ليجري المعجزات على يديه
لماذا يكتب له الله التوراة بيده؟
ما كل هذا التعظيم لـ موسى . . لما لم يكن الخضر؟
هنا نعود للقصة، للنبي موسى والسيد الخضر.
العلاقة التي يقدمها لنا الخضر هي علاقة فردية . . رجل يعيش بمفرده في مقابل رجل أمَّة يسأل أباه . . لما تعبد الأصنام، رجل مثل إبراهيم يسأل كثيرًا جدًا مَن أعبد ؟ مَن يستحق . .
رجل مثل السيد المسيح وديع رقيق في إنجيل متى لكن بمجرد أن يبدأ حديثه مع الفريسيين (السلفيين) حتى يبدو حادًا صارمًا جارحًا .
رجل مثل موسى يناضل، يرتحل، ليس الأفضل ولكنه الواقعي . . العملي المنطقي . . المادي . . كيف تقتل غلام بدون ذنب سيد خضر؟

كيف تخرق سفينة هؤلاء الطيبين؟

ثم لما نبني جدار لقوم غير محترمين؟ . . إنه الاستنتاج العقلي ، المنطقي للوجود . . لا أتخيل بالطبع النبي موسى هادئًا وهو يعترض على قتل غلام بدون أي ذنب مثلاً . . كان بالتأكيد منفعلاً ثوريًا .

هذا هو ما ميَّز النبي إبراهيم، السيد المسيح، السيدموسى.

الذوبان في الواقع إذن، احترامه، الإيمان به، استيعابه صفة دينية والعلم هو المادة الأولى للواقع، هو منطق الواقع، قوانين الله، إبداعه إنها وشيجة متينة تلك القائمة بين العلم والدين.

الواقعية إذن هي التي تجعل للدين وجود دائم مثمر .

الجانب الآخر، الخضر نفسه قدم لنا صورة من صور العلم الذي يخالف الشريعة نفسها، والقصة لا تحكي سوى عن حاجة النبي لأن ينصت للخضر أي ينصت لهذا الذي يخالف الشريعة فيقتل ويظلم ولا عين بعين عنده القصة رائعة في كيف أن ديننا واقعي أولاً وقبل كل شيء وثانيًا أنه لا يكفي . . إنه في احتياج لهذا العالم بل في احتياج لما يخالف نصوصه.

أظن أن النبي موسى لو كان سلفيًا لقتل الخضر مع أول موقف يجريه أمامه.

مثلما قتلوا السيد المسيح ـ حسب التصور المسيحي ـ بمجرد حديثه عن صوم آخر وصلاة أخرى وزكاة أخرى وسبت آخر.

ما بعد العلمانية

حين نكتب يومياتنا نبرر ذلك برغبة ذاتية وهي إخضاع أنفسنا للملاحظة والتأمل
عندها يمكن لنا أن نتدارس أنفسنا ونرتب مستقبلنا، فما أجمل أن نتحول لمادة علمية قابلة للفهم والتطور.
ونحن نستغرق وقتًا طويلا جدًا كي نفهم أنفسنا، ولكننا نفهمها في النهاية ونمارس رغباتها وأخطائها بقناعة ومحبة وأحيانًا أنانية . . والجميل أن هذه اليوميات ليست تاريخنا الشخصي فحسب وإنما تاريخ البشرية كله.
لكن أي عصر نعيشه الآن؟ وأي إنسان هذا الذي يعيش فيه؟
إننا لا شيء نقولها ونحن نكاد لا نصدقها . . شعورنا يختلف قليلاً عن عبث سيزيف واللاعقلانية الفلسفية ما بعد الحرب العالمية الثانية، إننا نقف عند الحافة . . جيل يقوده يقين (اللاأدرية) وفخ النظريات القابلة للتكذيب جيل ينذر بـ (موت الانسان).
وهذه الحالة المكثّفة من الوعي جائتنا فقط حين حفرنا عن يومياتنا القديمة وأخضعنا الحياة والأنا والعالم للاختبار بالنفي تارة والاستبدال تارة . .
وبعد أن امتلأنا يومًا ما بفكرة الانسان الأعلى بتنا لا نملك سوى أن نتهامس متسائلين: هل يمكن لنا أن نعيش للنهاية بإحباط أقل ورؤية عقلية لا تنحرف

لغموض أكثر أو حيرة أشد .

التأمل، الوحدة، الفلاسفة الأنبياء . . عادة ما يعلمونا أن ننصت في وداعة لماضينا الشخصي.

يملأون قلوبنا بالتفاتة عابرة إليه ، إلى أثرنا . .

إن ردتنا هذه نوع رقيق من أنواع المجازفة، محو الزمن والوقوف وجهًا لوجه معنا كوننا في لحظة عابرة ـ مجرد لحظة عابرة ـ تراث أنفسنا وبقيتنا .

نعيد لوجوهنا الأصباغ كاملة . .

من نحن ؟ . .وكيف لعبنا أدوارنا ؟

أحب هذا . . أن أسأل من وكيف ولماذا .

وأتداعى مذابًا في سؤال وراء سؤال. .وكل الإجابات عادة هي أسئلة كبيرة . . مخيفة.

إنها تجبرنا أن نمر في لحظة حاسمة بأحد احتمالاتنا ونمضي. .كأننا خلايا أميبية تنقسم في لحظة حاسمة كي نموت للأبد في اختيارنا أو نعيش أثر عبر موت حقيقي لا عاطفة فيه.

جميل أن نسأل ونحن نمر أمامنا . . من هؤلاء ؟

هل هذا أقصى ما أمكننا خلقه ؟

كيف لو أننا آمنا بنقيضنا . . كيف سيكون عندها عالمنا ؟

لكن المخيف حقًا هو أن نباغت بأن ماضينا استحال لحياة سفيهة وأننا أشبه بفيلم للتسلية . . كنا مضحكين وربما كنا مملين أو أرجوزات مقلدين (اسطنبات) وأمضينا حيواتنا في سفسطة.

المخيف لاختطافنا عبر مشاهدة أنفسنا فيما كنا هو أن نكتشف أننا (لاشيء) ، كنا فيما كنا لاشيء . .

محنة اللاشيء .

خطونا راكم لنا قلوبًا طاعنة في الخطيئة وفي الألم.

محنتنا عندها أيضًا في أن نكتشف فجأة أن لحظة ماردة تتأهب للقائنا لحظة اختطاف حقيقي، فناء مُعَد فينا . .

اللاعودة. .

أخاف من هذا وصرت غارقًا في التأمل وحده، الوحدة وحدها، الفلاسفة والأنبياء.

ماعدت أطمئن لأن أصير فضاءًا لكل الآخرين . . فضاء ثرثراتهم، فنائهم، أخطائهم . . سفسطة حكاويهم البليدة.

والوحدة هنا اصطفاء للذات دون الآخرين . .

إننا نسمح بوحدتنا لأن نرانا بلا أدنى مواربة أو تلفيق . .

نفتح بابًا لعالمنا المخبوء في عيون من حولنا، المندس بأبجدية الماضي المُشَاهد أفعالنا . .

إننا نعلن أنفسنا لأنفسنا لنلتقيها، لنمهد لها الحقائق وندبر لأنفسنا جدول أعمال. .

خطة مواجهة.

فعلت ذلك . . واسترحت فعلاً . .

الحياة لا تحتاج مني سوى الدخول والجلوس عند انتهاء المجلس، ثم الولوج لداخلي بقدر نشوة الكشف عن الخارج . .

استرحت لفكرة مسيحية عن الاتضاع . . فكرة المتكأ الأخير.

الجلوس حيث ينتهي صخب الحياة وتنهض روح العالم.

إنني وحدي وفي وحدتي أقلب العالم في يدي بحركة بسيطة، أقرأ كيف يفكر الناس، كيف يحلمون، يناضلون، وكيف يموتون.

أحب حفنة التراب هذه التي ضجت بالحياة.

(لا جديد) التي تفوه بها الملك سليمان تعني لي أن ثمة معنًا خفيًا للحياة

إن التمويه المدخر في كل ما حولنا هو ما يمنحنا فرصة افتراضية لفهم أعمق للحقيقة، للذات، أن نحقق أعلى مبيعًا للخير، للسلام، للحب . . أن نمنح قلوبنا بُعدًا عقليًا ولعقولنا بُعدًا قلبيًا .

إن جهادنا في الحياة يحتاج أولاً أن نثق في أن أحاسيسنا وأهدافنا الكبرى وانفعالاتنا ليست عابرة ، ليست نتيجة مواد كيميائية عمياء تمر من إلى أذهاننا . . إننا أعمق وأوفر حظًا حين نلمح أثر الله في أرواحنا وفي العالم الذي نعيش فيه . . إنها حالة شديدة النضج .

أنا أريد أن أقترح عليك تغيير العالم . . الأمر سهل جدًا . . تغيير العالم سهل للغاية . . لكن هل تؤمن أولاً بأن العالم يستحق ؟

إننا مشوشون في الاستجابة للعالم ، فالعالم الآن يخضع لحضارة الأعداء هكذا تتصور . . أيضًا نحن لا نعاني من مستعمر قديم وحسب وإنما من مؤيد حقيقي لإسرائيل .

صادم فعلاً حين تكافح الكاثوليكية من أجل عودة اليهود .

بسبب الماضي المرير الذي يجمعنا بالغرب وبسبب تخلفنا الشديد وبسبب وضعنا الهامشي في العالم نحن نرفض العالم . . نلعن العالم . . دعنا نأخذ خطوة منطقية واقعية . . أليس هذا الواقع يعد واقعًا مثاليًا للتغيير ؟

نعم هو واقع مثالي فعلاً للتغيير

السؤال الآن ما المانع في تغييره ؟ . .

لا تقف مشكلة العالم عند اللاأخلاقية السياسية عند الغرب ولا عند تهميش الله عند الغرب ولا لتأييد الكاثوليكية لإسرائيل . . للأسف نحن

جزء من المشكلة الحضارية . . لأننا لا نقدم سوى الرفض لحضارة حقيقية قائمة على أعمق ما نملك العقل . . كما أنها حضارة قابلة للنقد فحضارتنا العلمانية لا تقف بجمود أمام مجاعات وحروب الشعوب ، أفهم أننا نشير للغرب كعلة لكل آثام العالم لكن الحقيقة أن علينا أن نلوم فقط وأن نشارك في عالم ما بعد العلمانية .

للأسف نحن نرفض حتى العلمانية .

المفكر المسلم محمد عمارة لا يرحب بالعلمانية . . مصطفى محمود أيضًا الإمام محمد عبده هاجمها بشدة لكن للآن يتم رفض الإمام عبده نفسه ومصطفى محمود هامشي عند الأكاديميين الدينيين ولا يتم الالتفات إطلاقًا لمجهودهم التجديدي . . نجد أيضًا رفض سيد قطب لإقبال (كان رفضه مهذبًا) في كتاب مقومات التصور القرآني . . ماذا أريد أن أقول . .

إننا نعاني عملية وأد عنيف لمجددينا بجانب أننا لم ننجح للآن في التخلص من عقمنا الإبداعي.

أضف إلى ذلك أن الغرب حين تعثر في دمج الأسطورة والدين، نحن أيضًا نتعثر في دمج العلمانية بالتخلف الأخلاقي.

وكما وقع الغرب في فخ أن الدين لا شيء . نحن وقعنا في أكذوبة أن الدين هو كل شيء .

الأمر الثاني أننا لا نجد أن ثمة حاجة للفلسفة رغم أنها منحت العالم عصورًا كاملة من الحرية والنضج والثورة . . أخيرًا كيف يمكننا تغيير عالم نعيش خارجه؟

أقصد أن أهم ما يجب تغييره هو نظرتنا للعالم ، للتاريخ . .

نحن حقيقة شغوفون بالماضي، بعصورنا الوسطى الذهبية . . دعنا إذن نلقي نظرة على احتفائنا بهذا الماضي . . الآثار الإسلامية عبارة عن خرابة حاجة (تقرف) . . حاجة (تحرق الدم) .

الجميل أن صديقي المصاحب لي في زيارتي للآثار الإسلامية بالقاهرة قال لي بثقة : ستنبهر حين تدخل مسجد السلطان حسن أبهى أثر إسلامي . . ودخلناه وكانت حالته (زبالة) . . الأجمل مسجد الرفاعي الذي يقع في مواجهة مسجد السلطان حسن . . قصته أنه مشروع مقبرة ليس إلا . . والمصمم مهندس فرنسي.

في شارع المعز دخلنا مسجد الحاكم بأمر الله . . منتهى قلة الأدب في الترميم . . تذكرت يومها رواية اسطنبول لأورهان باموق وكيف أنه رغم حبه الشديد لها ، لم يخفِ تقززه و(أرفه) من حالة آثارها الإسلامية ، آثار إمبراطورية جبارة غيرت التاريخ وشاركت في كتابته . . للأسف حتى الماضي نسيء إليه .

في حين أن الأمر يختلف عند الغرب . . فرغم أننا نعرف القطيعة التي تمت بين روما والعالم الغربي بفصل الدين عن الدولة وسب عصور الكنيسة الوسطى، نجد كاتبًا علمانيًا ملحدًا نوعًا ما . ساراماجو . يكتب لنا روايته الرائعة (كتاب الرسم والخط)ولا يملك أن يُخفي روعة الفن والجمال المتجسد في أروقة وساحات ولوحات وكنائس روما . .

إننا إذن جزء من العالم الذي علينا تغييره . .

للآن لا نؤمن بالفن ، لا نجد حاجة للرواية والقصة والمسرح

رغم أن حضارتنا الإسلامية كانت قائمة على كتاب.

الآن ماذا عن الحالة الذهنية التي يجب أن نكون عليها ؟

أحيانًا تتخذ أذهاننا مقعدًا وتطالبنا بالتداعي الحر . .

أن نعترف بأحلامنا كاملة، مواعيد انقلاباتنا العنيفة على أنفسنا . .

لكن أليست أذهاننا ما يدير لنا هذه الانقلابات . . من يعلمنا أن نثور ؟

إنك لو عثرت على كل البرقيات السرية المتبادلة بين خلايانا الطموحة ستجدها بخط أذهاننا . .

أذهاننا متورطة في الدفع بنا للثورة، للنضج، للرفض، حتى أنها متورطة في كل دقة من دقات قلوبنا . . وماذا يمكنها أن تقدم لنا غير أن نحب ، نلتهم هذه الحياة العميقة .

أبدًا لن تسمح لنا بالهروب . .
على الجانب الآخر هل أذهاننا جديرة بأن تقف بمبناء قلوبنا وتعلن بصراحة أننا غير جديرين بالحياة؟
إن كل ما يمكن أن يُقال هو أن الحياة هي كل ما يُقال . . الحياة لا تكفي لنقبل الانتهاء منها بدون أثر، فضاء أرواحنا يتسع لأكثر من الثورة والطموح أود أن أصرخ بأننا نفهم جيدًا أننا مكبَّلون . .ماكس بلانك، شرودنجر، أينشتين، هيزنبرج سربوا لنا تلك المؤامرة . . فالزمن خدعة والمكان خدعة والوجود خدعة لكن ماذا تنتظر أذهاننا الآن؟
أن تتلاشى من جديد . . أن نستسلم لتفتت حضارتنا من جديد ؟
لا أظن . . أنا بمنتهى الغرور أحتضن كتابات مصطفى محمود، محمد عبده زكي نجيب، عبدالرحمن بدوي، مراد وهبة، سروش، زكريا ابراهيم، الغزالي، البابا شنودة الثالث، كارين آرمسترون، مراد هوفمان، ج.سارتون قاسم عبده قاسم، ساراماجو، كوتسي، ن.محفوظ . . إلخ . . لا أؤمن بالعداء أبدًا، ولن أدفع خلاياي لحرب أهلية أبدًا .
سأدوّن أيها العقل ملامحك فيَّ ، سأعقد اجتماعات مفتوحة مع كتب ما قبل الكتابة . .

الحياة بالنسبة لي قيثارة فيثاغورث، ضربات موزارت، كلمات الماغوط المُرَّة سأطعن في أحقية الموتى في أن يثرثروا أكثر . . سأفتح الباب لكل طفرات اللغة والمعادلات والمشاكل الفلسفية كي تعيد خلق حياتنا، سأحب هذه الحياة بكل ما أستطيع . . يدك يا رب دومًا قبل يدي؛ فيدك لا تخطيء أبدًا .

محبتي

س.ا.سالم

الاسكندرية 11ـ 2012

مطالعة لـ

القرآن الكريم
الكتاب المقدس
تاريخ العلم ج.سارتون
ربيع الفكر اليوناني د.عبد الرحمن بدوي
خريف الفكر اليوناني د.عبدالرحمن بدوي
الفلسفات المعاصرة د.زكريا ابراهيم
فلسفة العلو شتروفة
مستقبل الأخلاق د.مراد وهبة
الفرد في فلسفة شوبنهور فؤاد كامل
وجودية ووجوديون رمضان لاوند
موجز تاريخ الأسطورة ك.آرمسترونج
الدقائق الثلاث الأخيرة بول ديفيز
رومانسية العلم كارل ساجان
ديانة إخناتون إيريك هورنونج
بين المسيحية والاسلام م . الغزالي
خصائص التصور القرآني ومقوماته سيد قطب
المسلمون والحداثة الأوربية خالد زيادة .
الإمام محمد عبدة الأعمال الكاملة
انطلاق الروح البابا شنودة الثالث
عشرة مفاهيم البابا شنودة الثالث
لاهوت المسيح البابا شنودة الثالث
طبيعة المسيح البابا شنودة الثالث
موسوعة الخادم القبطي جـ٢، جـ ٢٠
المسيح كما أراه البابا بيندكت الثالث عشر
الإرث المسيحي (مجموعة مؤلفين) ريتشارد لى ،مايكل بيجينت
هنرى لونكولن ، ترجمة محمد الواكد .

مفهوم النص د.نصر حامد أبوزيد
حوار مع صديقي الملحد د.مصطفى محمود
الله د.مصطفى محمود
رحلتي من الشك د.مصطفى محمود
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري آدم متز
هموم داعية م.الغزالي
الاستقلال الحضاري د.محمد عمارة
فصول من الكتابة العلمية الحديثة تحرير ريتشارد دوكنز
فجر العلم الحديث تونى هيف
تاريخ ضائع مايكل مورجان
المسيحية والتاريخ د.اسكندر القمص لوقا اسكندر
الإسلام في الألفية الثالثة د.مراد هوفمان
رحلة إلى مكة د.مراد هوفمان
الاسلام عام ٢٠٠٠ د.مراد هوفمان
الاسلام كما يراه مسلم ألماني د.مراد هوفمان
محاكم التفتيش د.رمسيس عوض
الحروب الصليبية في الشرق ميخائيل زابوروف
المسلمون وأوربا د.قاسم عبده قاسم
الطريق رواية نجيب محفوظ
كتاب الرسم والخط رواية ساراماجو

المحتوى

إهداء

الخطوة الأولى «دفاعًا عن الدين»..... ١٣
الخطوة الثانية «أخطاؤنا النبيلة»..... ٢٥
الخطوة الثالثة «ما بعد العلمانية»..... ٥٧
مطالعة لـ ٩٧